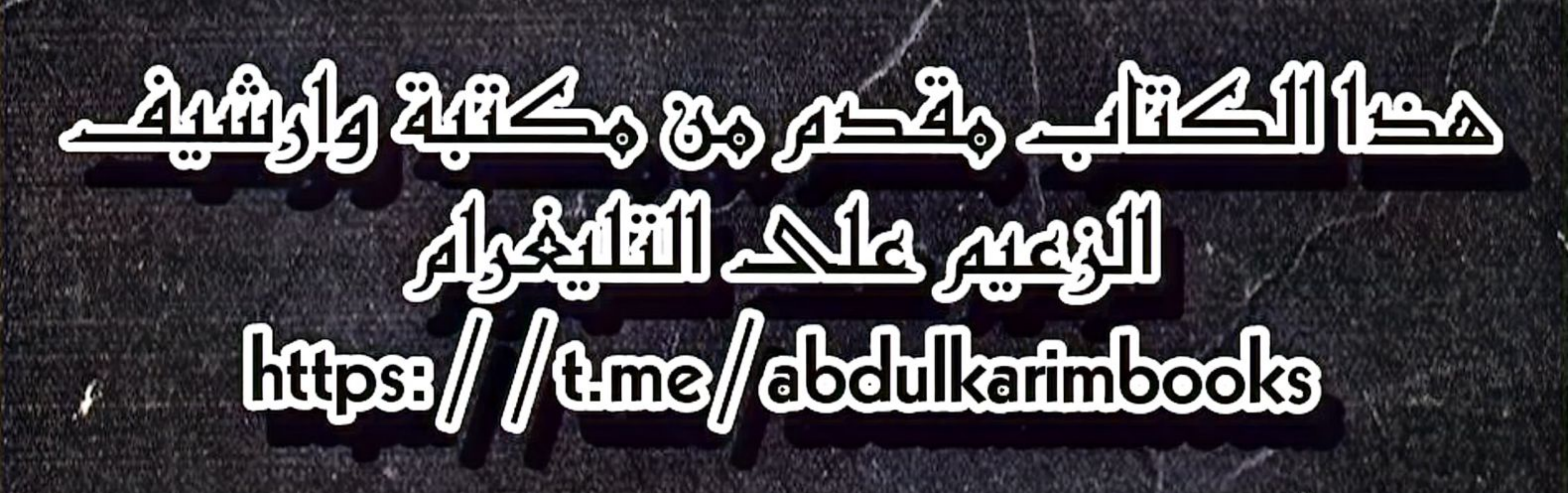
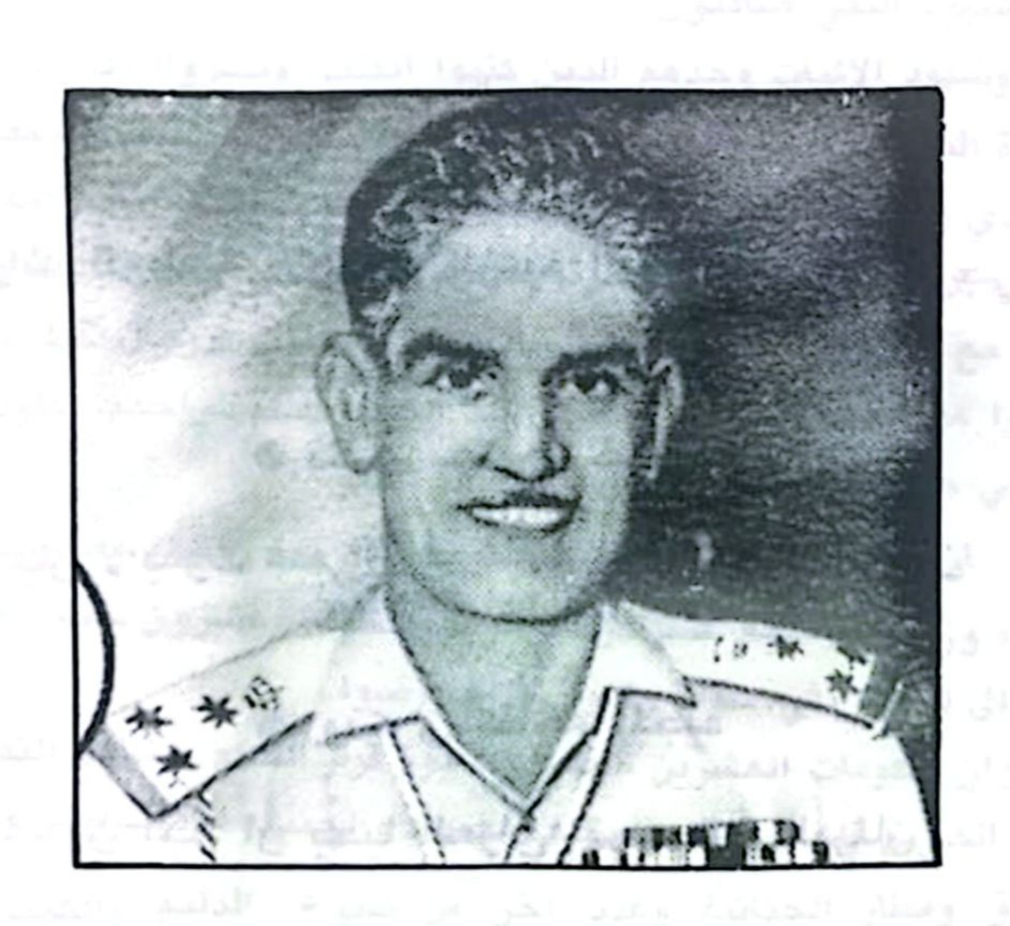
حسن العلوي

عبد الكريم قاسم

رؤية
بَعد العشرين


هذا الكتاب مقدم من مكتبة وارشيف
الزعيم على التليغرام
https://t.me/abdulkarimbooks
المعرف
@abdulkarimbooks

الزعيم عبد الكريم قاسم



هذه المحاولة

مضى ربع قرن على انعقاد أول جلسة عربية لمحاكمة عبد الكريم قاسم وثورة ١٤ تموز. ولم ينته النظر في هذه القضية مع أن المتهم الرئيسي فيها قد اعدم رمياً بالرصاص دون محاكمة، ومرت عشرون سنة على اعدامه.

شهود النفي صامتون..

وشهود الاثبات وحدهم الذين كتبوا الكتب، ونشروا المذكرات، وسودوا أعمدة الصحف العربية بالسطور الغاضبة. ولم يتخلف الشعر العربي العمودي والحديث، عن الادلاء بقصائده ضد المتهم الماثل امام الأمة منذ ربع قرن. وما زالت المحكمة مستمرة، يساهم فيها حتى هذه الساعة صحفيون عبروا مع الرئيس المصري انور السادات الى تل ابيب، ورجال نفط، وأشخاص حكموا على المتهمين الذين اطلق عبد الكريم قاسم سراحهم، بالموت شنقاً.. وبالنفي حتى الموت رصاصاً.

ان شهود الاثبات وهم مائة وزير واربعة رؤساء جمهورية وخمسة رؤساء وزارات وتسعة عشر حركة وحزباً ومنظمة، وعشرون سنة، - تحولوا الآن الى شهود نفي سواء رضوا أم لم يرضوا.

وان حكومات العشرين سنة هي اليوم قرار الحكم، وشاهد النفي لصالح عبد الكريم قاسم، بحضور حلف بغداد والجنيه الاسترليني وشركة نفط العراق ومطار الحبانية وعدد آخر من شيوخ الدليم والكوت والموصل والسليمانية.

فرصة ثمينة لان يصير المنفي شاهد نفي.. مفارقة لغوية غريبة تتحول الى واقع. النفي يولد النفي... ويولد الشهادة الجديدة التي تأخرت عن موعدها.. ربع قرن!

ولولا ان يكون النفي فرصة لظهور شاهده لتأخرت ربع قرن آخر.. وعبد

الكريم قاسم وراء ظهر حاملي العدسات والعيون..

ان هذه المحـاولـة ستحظى بعطف الـوطنيـين الاوائل وان اختلفت احزابهم ومشاربهم.

اما أصحاب الحق العرقي في الحكم، والذين اكتشفوا حقهم في السيادة على العراق بعد زوال عبد الكريم قاسم، فسيستمرون بلا هوادة في مناضلته حكاماً ومعارضين.

لقد اعتمدنا في هذه المحاولة اربعة مصادر، خامسها روح الحياد. وهي عدسة العين وطبلة الأذن والذاكرة ومحسن حسين الحبيب الضابط الحر والمعارض المبكر لعبد الكريم قاسم.

اما دار الزوراء التي تبنت المشروع، فحسبها أنها خطت اولى خطواتها نحو الصعاب.

والربح هو ربح عبد الكريم قاسم... قُتل ومعه دينار ومئتا فلس فحمل معه الى العالم الآخر، ثورة وجمهورية وارضاً لا مكان فيها لقبره.

حسن العلوي
لندن - ١٩٨٣

عبد الكريم قاسم وهذا الكتاب

هذا الكتاب .. فاتحة «دار الزوراء»، ومؤشر نهجها فيما ستعنى بطبعه ونشره. مما يتساوق وجمر الحقيقة مهما تدثرت بالرماد. ومهما طال بها الزمن وتعاقبت الايام.

منذ خمسة وعشرين عاماً.. طلع في العراق المكبل بالاغلال والعبودية والاستغلال.. رجلٌ ثائر.. دهدى تاج الطاغية تحت اقدام المضطهدين.. وكسر القيود.. واعاد للعراقي كرامته السليبة.. وانسانيته وشموخه..

عبد الكريم قاسم.. القائد الثائر، ومؤسس اول جمهورية في تاريخ العراق السياسي والمتمرد في بغداد.. على حلف بغداد. والمنتفض على الشركات النفطية، والقواعد العسكرية البريطانية، والمتحلل من الانشداد بالبريق الاسترليني.. والواهب الصحافة والاحزاب.. والنقابات حرياتها...

عشرون عاماً خلت، وقد اشتبكت الاكف عليه، الرجعية المنزوعة المخالب، والشركات النفطية، والطبقيون المسلوبة امتيازاتهم.. والمختلفون معه.. والمختلفون عليه.. غيرةً على ارتداد قومي، او مذهبي او ايديولوجي..! فهل كان عبد الكريم قاسم حقاً قد ارتد بكل هؤلاء وعن كل ما بين ايديهم! وهل كانوا على بيان وميعاد معه قبل ان يندلع لهيب الثورة.. ان يكون لهذا.. او لذاك؟

هذا الكتاب يضع الحقائق الموضوعية بين يدي القارىء باسلوبه المتزن المحايد، ويترك له مبادرة استنتاجه للحقيقة الناصعة...

ولعل شهادة المؤلف ـ في كتابه هذا ـ وهو ينفض الرماد عن حقيقة عبد الكريم قاسم بعد عشرين عاماً ـ من اخطر المواقف واشدها جرأة ونبلاً ـ بعد ان كان من المناوئين الاشداء لعبد الكريم قاسم، لكنه وقد عركته الايام، لم يتردد ان يعلن هو دون سواه رأيه ورأي التاريخ، غير هيَّاب ولا وجل، وهو يسجل ذكرياته وحواره الهادىء، ولا يتردد ان يسرد مواقفه المناوئة.. آنذاك.. ويحاور الاخرين حول رجل دَمَغَ حقبةً من التاريخ باسمه ولم تستطع الايام ان تنال منه ولم يستطع ان يطمس المتطاولون ذكراه... وصداه.

لعله اول كتاب ينصف الثائر الكبير بشموخه وتهاونه وبساطته وهفواته وحزمه... لا سيما وان مؤلفه طالما كرّس قلمه للنيل منه حياً، ولكنه عاد ليدرك حقيقته الناصعة ميتاً.. فهبَّ ليذب عنه مدافعاً ومستبسلاً ودون هوادة.. وهو لا يتوخى غير الحقيقة التي ادركها بعد رحيل عبد الكريم قاسم..

وهذا هو سر هذا الكتاب؟

«الناشر»



جارنا القادم من فلسطين

عام ١٩٤٨ وشريط ثابت الصور رغم حركة السنين المثقلة بالأحداث الكبيرة، يعود بي إلى الصف السادس الابتدائي، (وقريتنا العباسيّة) الجاثية على صدر دجلة الأيمن في كرادة مريم ببغداد تمتد الى اكثر من ميل في العمق، وهي تنحدر بهدوء مع الساقية التي تخترق بيوتنا الطينية الى داخل البستان.

لكن عالماً غريباً بدأ يمد اشباحه المؤذية، على البستان التي ورثها عدد من اقربائنا عن آبائهم منذ عدة قرون، فاذا بوالدي وهو معمار متخصص ببناء المساكن الحديثة والى جانبه خالي حميد الحاج عباس الحمداني، الذي انتهى من بيع صفقة سيارات اشتراها من معسكرات الجيش البريطاني، وهما يتشاوران حول مصير الخستاوية والتبرزلة واصابع العروس، وشقيقاتها، بعد ان قررا بناء عدد من المساكن داخل البستان.

مرَّ ذلك اليوم حزيناً علينا، فأجتمعنا نحن ابناء البستان ـ لنتشاور اين سنلعب لعبة الحرامية والحارس كل مساء؟ ولعبة الكرة التي نصنعها من الجوارب البالية في النهار؟ ومن اين سنأكل التمر والنخل في طريقه الى الزوال؟

كان البستان مشاعاً لجميع افراد العائلة، ولم يكن ممكناً منح اجازة بناء لهذا السبب، ولكون الارض غير مفروزة،

ولم تمض سوى أيام قليلة، حتى جاست شاحنات الطابوق أرض البستان البكر، وأفرغت حقدها على جثث النخيل. مما اثار دهشتنا فالذي كنا نعتقده ان اليهود وحدهم الذين يقيمون البيوت من الطابوق والحديد والأسمنت. كان البيت الاول الذي بدأ العمل به مطلاً على شارع الملك علي.. حيث يمر الأمير عبد الأله الوصي على عرش العراق قادماً من منزله القريب في طريقه الى البلاط الملكي، او قصر الرحاب.

وقد توقف مرة أمام تراكم مواد البناء التي زحفت الى منتصف الشارع قبالة المنزل الجديد. ولعله ابتهج لرؤية الدور الحديثة وهي تمتد الى هذه القرية

المعزولة. وقد كلفني والدي برش الماء على اسس البناء صباحاً ومساء، مقابل أجر لم أستلمه بعد انتهاء ايام العيد الثلاثة، فخسرت العيد وربع الدينار الموعود. تحول البستان بسرعة الى بيوت متلاصقة من الطابوق وكأنها تطبق على حياتنا ولا تترك لحركة اقدامنا، سوى زقاق لا يتسع لمرور اكثر من دابة، وتطل عليه شبابيك خشبية مزججة، فلا يعرف، المار في الزقاق، من الساكن داخل هذه الدور؟ وقد جلب انتباهنا وجود غرفة على الدرج في البيت الاول تتصل بالبيتونة، وهي بمساحة تسعة امتار مربعة تطل منها نافذة صغيرة على الزقاق، وكنا نتساءل من يسكن في غرفة معلقة بجانب الدرج؟ فلم نكن نرى السكنى الا على وجه الأرض.

كان مستأجر البيت الأول المطل على الشارع رجلاً في عقده الخامس يعتمر الكوفية والعقال، وقد وضع لوحة على باب المنزل، مكتوباً عليها بخط الرقعة وبتوقيع الخطاط صبري، اسم المقدم الركن عبد الكريم قاسم. واخذنا العجب مرة ثالثة ان يعتمر المقدم الركن الكوفية والعقال، ولم نكن نعلم ان عبد الكريم قاسم ضابط يقود فوجاً عراقياً في فلسطين اتخذ مقره في كفر قاسم، وان هذا الرجل هو شقيقه الأكبر حامد، الا بعد ان جمعتنا الألفة مع اولاده عدنان، وماجد، وحسين والذين كانوا يتحدثون باعجاب غزير عن عمهم وهم ينتظرون عودته من فلسطين، بعد ان خصصوا له غرفة الدرج التي تضم سريراً حديدياً مع خزانة خشبية مزججة، امتلأت بما لا يقل عن مئتي كتاب، وقد سمرت على الجدران مشجبة ملابس تحتها جعبة للعصي العسكرية. ,

وبسرعة كاسحة تكاملت علاقة حميمة بين أم حامد وبين أمي ونساء الزقاق. كانت أم حامد في عقدها السابع ممشوقة القامة باسقة، مستديرة الوجه، يميل لونها الى الحمرة مع بياض شديد، وقد لفت شعر رأسها وعنقها بفوطة بيضاء لم يكن لنا عهد بها. فأمهاتنا يستعملن الفوطة السوداء. وكانت اذا تحدثت اسرعت فتتعثر الكلمات في فمها فتأخذها حالة من اللكنة المحببة، وقد منحت نفسها صلاحية التصدي لكل خارج على ما تراه صحيحاً. ولم يكن زوج أو أم أو أبنة أو ابن يغضب لغضب تصبه أم حامد على رأسه.

كان ولدها عبد الكريم قد خصص لها شهرياً ثلاثين ديناراً الى جانب عشرة دنانير من حامد، وخمسة من ولدها الصغير عبد اللطيف، نائب الضابط الذي يسكن حي تل محمد في احدى الدور الحكومية الصغيرة ولم يترك داره بعد ثورة ١٤ تموز. ان خمسة واربعين ديناراً شهرياً، مبلغ كبير في حساب تلك السنين، لسيدة ليس لها نفقات وهي تسكن مع ولديها، مما منحها فرصة لترجمة مشاعرها الطيبة ازاء ابناء المحلة. فكانت تدخل كل بيت وتتأمل ضروراته بامعان، فاذا شعرت ان اولاد فلان لا يقيهم الغطاء شر البرد، اخذت طريقها الى المهدية وعادت بلحاف. واذا رأت نعالاً ممزقاً في قدم امرأة، عاجلتها بواحد جديد.

ولن أنسى يوماً من عام ١٩٥٠ وقد عدت من مدرستي (ثانوية الكرخ) مشياً على القدم بسبب عدم حضور زميلي الذي يقلني معه على دراجته، فوجدت والدتي وهي في اشد القلق والى جانبها ام حامد التي كان قلقها اشد، فبادرتني بالسؤال عن سبب التأخير، وحين اخبرتها الخبر اندفعت أم حامد مسرعة نحوي، وأمسكت بيدي الى الشارع.. اريد (ربل)، وانتظرت عربة الخيل الى أن مرت فصعدت ام حامد، واصطحبتني معها الى ساحة الملك فيصل الأول في الصالحية، حيث اوعزت للحوذي بالوقوف، ونزلنا متجهين الى محل لبيع الدراجات فقالت: خذ واحدة.. لم أكن أصدق عيني.. والتفت اليها.. وكررت خذ واحدة تناسبك، وكان نوع الدراجة دانليت.. فعدت أجري وراء عربتها، حتى دخلت بيتها، ودخلت بيتي، ونسيت انني ما زلت بلا غَدَاء، وقد جاوزت الساعة الرابعة مساء.. وهكذا كان دأبُها مع الآخرين في اللحظات المناسبة.

عاد عبد الكريم من فلسطين، وقد نظرنا الى وجهه الذي ترتسم عليه علامات الجدية، بعدم ارتياح، فهو لا يلاطفنا، ولا يتحدث مع جاره سوى حميد الحاج عباس، ولم يفكر مرة بالجلوس في مقهى ياس المواجهة لداره، والتي لا تبعد عنه سوى ستة امتار، هي عرض شارع الملك علي، بينما كان شقيقه حامد زبوناً يومياً على مائدة الدومنة فيها. كنا نريد منه أن يكون مثل اخيه أو مثل أمه، لكنه كان مثل أبيه الذي مضى عليه زمن دون ان يجالس احداً، بل اعتاد التوجه يومياً الى محلة المهدية والعودة منها مساء بعربة خيل، الا أننا لا ننسى ان عبد

الكريم كان يصطحبنا بسيارة الجيب العسكرية الى المدرسة في عدد من المرات.

وكنا نشعر بلذة كبيرة لطريقته في معاقبة اولاد اخيه بعد كل شكوى نقدمها اليه ضدهم. فقد كان يعقد جلسة محاكمة امام باب بيته ويفرض العقوبة على أحدهم بالصعود الى غرفته، وجلب عصا يقرر له رقمها، فاذا أحضر المخالف سواها، ضربه بها واعاده ثانية لجلب العصا المطلوبة واتمام العقوبة!.

ولطالما دخلنا بعد ان نجح المقدم جمال عبد الناصر في الاطاحة بعرش فاروق بمناقشات مع اولاد حامد، نقارن فيها بين المقدم جمال عبد الناصر والعقيد عبد الكريم قاسم، وكيف استطاع المقدم ان يهز العالم بينما يقبع العقيد في غرفته، وكان جوابهم التقليدي انه عسكري. وكان اطلاعهم على العلوم العسكرية يساعدهم - لا سيما ماجد - على تقديم اجابات علمية، لم تكن تقنعنا، ولم نكن نفهم الا أن يكون كل ضابط برتبة مقدم كعبد الناصر والا فانه عميل او جبان!.

لم يكن عبد الكريم قاسم في بيته اجتماعياً، ولم يكن سياسياً، كانت العسكرية عالمه كله، ولعل ذلك ساعده على عدم كشف نواياه الثورية، كما ساعدته عزلته عن الناس وميله الى الحوار النفسي والعمل بنظرية المونولوج بدلاً من الدايلوج.

ويبدو ان الأشخاص الذين مارسوا النظرية الاولى ساهموا في صناعة التاريخ. بينما لم يستطع اصحاب النظرية الثانية ان يصنعوا شيئاً، لا للتاريخ، ولا لأنفسهم.

لقد كرر خصوم قاسم فيما بعد، في واحد من اتهاماتهم، انه كان ينزوي بعيداً عنهم، وانه لا بد ان يكون مصاباً بمرض نفسي. بينما قد يصح القول انه ينزوي بعيداً عن الآخرين لأنه كان يحمل شيئاً ما مستخدماً الحوار الداخلي، او البناء الداخلي لأنضاج وبلورة أفكاره ومشاريعه.

كان مدرسونا يطالبون بكتابة تقارير عن شخصيات تاريخية او أدبية، وكنا نحتاج الى مصادر لم تكن متوفرة في قريتنا آنذاك، وكثيراً ما أسررت ام حامد رغبتي باستعارة كتاب، لهذا الغرض من خزانة عبد الكريم، فتصطحبني الى غرفته، لانتقي احد الكتب، وهي حافلة بكتب الجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب، مع

مجموعة من الكتب الأجنبية. وكنت كلما فتحت كتاباً وجدت الخطوط بالقلم وقد سودت ما بين السطور، فأريها ذلك كي لا تتهمني بالعبث بالكتب فتولول قائلة (هذي عادة عبد الكريم)، وقد أثار انتباهي كثرة قراءاته النحوية. وكنت بعد ان أخذ مكانه في زعامة العراق، وصرت صحفياً ومدرساً للغة العربية أتابع باهتمام -وكأي معلم- جمله الأعرابية، فأشعر بارتياح لانه لا يلحن باللغة العربية. فأعود بذاكرتي الى تلك الخطوط مرة اخرى.

كانت ام حامد تبدو وقد حملت هموماً غير عادية وهي تلتقي مع خالتي وأمي في هذا الجانب. كانت تشارك في المآتم والتعزيات، وتبكي بحرقة على ابن اختها محمد علي، الذي عرفنا اسمه فيما بعد. وكان قائداً للقوة الجوية، ومن قادة حركة الفريق بكر صدقي عام ١٩٣٦، وقد اغتيل معه في يوم واحد. وترك اغتياله صدمة لها ولأخيه عبد الجبار جواد الذي اقترن بابنتها الصغرى نجية. وكان عسكرياً برتبة مقدم.

وطبيعي ان تتحدث النساء عن زواج عبد الكريم المتأخر، فكان جوابها.. ان عبد الكريم لا يريد ان تحل واحدة مكاني.. وهو يرفض النوم بغرفة مستقلة عن أمه. التي كانت تشاركه غرفة الدرج المتواضعة.

الا أنها قالت مرة، وبعد ان تقدم بابنها العمر، انه سيتزوج بعد ان تنتهي (شغلة براسه) ولم تكن، كما لم نكن نحن، مؤهلين لتفسير تلك (الشغلة)، الا بعد سنوات.. ولعله ماتت رحمها الله، دون ان تعرف ما هي (الشغلة).

اما حامد فكان يعمل وسيطاً للنقل النهري بين تجار الحبوب واصحاب الجنائب النهرية، وكانت حالته المادية في تلك الايام جيدة بالقدر الذي ساعده على تشغيل خادمة في داره، كانت المسؤولة عن تبضيع الحاجات اليومية للمنزل، وكان معروفاً باسم حامد جاسم. ولدى استفسارنا عن الاختلاف بين قاسم الذي يسمى به عبد الكريم وجاسم الذي يسمى به حامد.. قالت ام حامد، ان عبد الكريم رفض منذ وقت مبكر كلمة جاسم.. وقال ان الصحيح هو قاسم.

وكانت ام عبد الكريم وتدعى (كيفية) على خلاف مذهبي مع زوجها ولطالما سمعناها تقول له، ستموت وتدفن (بالنزيزة) وتقصد مقبرة الشيخ الجليل

معروف الكرخي.. وسأموت وأدفن في وادي السلام، وتقصد مقبرة النجف الأشرف.

وكان حامد ميالاً لمذهب أمه، ولطيف ميالاً لمذهب ابيه، بينما لم يظهر عبد الكريم حماساً لأي منهما. وقد مات كل منهما في مدة متقاربة قبيل ثورة ١٤ تموز فدفنت في مقبرة النجف، وقد خرجت بيوت كرادة مريم في وداعها حتى جسر الخر. ودفن قاسم البكر في مقبرة الشيخ معروف الكرخي.

في تلك الاثناء، كانت شركة انشاءات اجنبية قد اكملت بناء دار على النهر، تبرعت بها لنوري السعيد، قريباً من بيت عبد الكريم قاسم، ولم نكن نرى صلة ما بينهما، على عكس ما أشيع فيما بعد، عن وجود علاقة يومية ومتينة بين نوري السعيد وعبد الكريم قاسم، الذي كان موضع ثقته كما تقول الاشاعة وقد ساعد على نشرها، أنصار عبد الكريم وخصومه في وقت واحد. فأنصاره يرون في ذلك دليلاً على مهارته في كتمان مشاريعه الثورية ومرونته التي ساعدته على البقاء خارج شبهات النظام الملكي، بينما يؤكد خصومه هذه الاشاعة وصولاً الى النيل منه، ووصفه بالغدر والمكر والخديعة، وانه لا يتوانى عن الايقاع بمن منحوه ثقتهم.

اننا لم نسمع احداً من عائلته يتحدث عن وجود مثل هذه العلاقة في وقت كانت تعتبر فيه من وجهة نظرهم نوعاً من الوجاهة، ومدعاة للمباهاة، وتكية يتكىء عليها حامد قاسم او أحد اولاده.

ان مثل هذا الكلام، عن وجود لقاءات مستمرة بين نوري السعيد وعبد الكريم قاسم، يدل على عدم دراية مروجيه بشخصية كل منهما. لقد تصوروا انه (اي نوري السعيد) يتنازل عن مقامه ليتزلف الى ضابط برتبة عقيد.

ان ذلك لم يحدث طيلة الفترة التي تزعم فيها نوري السعيد الحكومات العراقية، وهو اذا ما شعر بحاجة الى مشورة عسكري، فلا يتجاوز تسلسل المسؤولية ولا يقيم علاقات جانبية، كما لم يكن عبد الكريم قاسم معروفاً بالتزلف بل لعله يعتبر اية محاولة للتقرب الى القيادات الحكومية على انها كشف لنواياه.



مشاهد اليوم الاول

اعتدنا قضاء المساء في مقهى يطل على ساحة الملك فيصل الاول حيث ينهض تمثال الملك بملابسه العربية وهو يمتطي صهوة جواد عربي ينطلق الى الامام والمقهى يجاور مبنى الاذاعة العراقية. ونشرة اخبار العاشرة مساء بدأت بالخبر التالي:

«في عون الله ورعايته يغادر البلاد صباح غد الاثنين صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني، وولي عهده الامين الى اسطنبول لاجراء مباحثات مع فخامة عدنان مندرس رئيس الوزراء التركي حول اجتماع مجلس حلف بغداد الذي سيعقد اواخر الشهر الحالي في لندن، ويرافق جلالة العاهل فخامة نوري السعيد رئيس الوزراء وعدد من كبار الشخصيات».

وانتهت النشرة بقراءة التعليق اليومي الذي يعده ويقرأه كاظم الحيدري وهو يتناول بالتعريض سياسة الرئيس جمال عبد الناصر، وكان لهذا التعليق فضل في اثارة روح المعارضة ضد الحكومة نفسها.

فقد كان الاعلام غبياً او غريباً الى الدرجة التي يتطاول فيها المعلق اليومي على عروبة عبد الناصر في اللحظة التي يبشر العرب بمستقبلهم الموعود في ظلال الاجتماع القادم لمجلس حلف بغداد!!.

مبنى الاذاعة في آخر ليلة ملكية كان اعتيادياً. اثنان من الجنود في الباب الامامي واثنان من الحراس فوق المبنى ودكان لبيع الكبة يندلع الى داخل المبنى على شكل لسان، وبعض السكارى يتناولون الكبة الثقيلة منه، وعلى امتار من باب الاذاعة كان بائع الباقلاء ما زال يزود الزبائن بالصحون السوداء ويرمي بالقشور تحت احذية المارة، وكان ملهى ليالي الصفا المحاذي لجسر الملك فيصل الثاني ويسمى ايضاً باسم الجنرال مود!! ما زال حافلاً بالرواد وسيارات تاكسي الصالحية وهي الوحيدة في المنطقة تتهادى بين الحانات والبيوت، بينما كان

الصحفيـون في جرائـد الاخبـار والبلاد والزمان، قد انهوا وضع العناوين الاولى حول (سفر جلالة الملك صباح اليوم الاثنين)...

بنادق الثورة:

واخـذنـا طريقنـا حيث اعتدنا ان ننام هناك واستيقظنا في الساعة الرابعة والنصف فجراً على صوت اطلاق رشاش وحين اتجهنا الى مصدر الصوت فوجئنا بمجموعة عسكرية ينتشر حوالى ١٢من افرادها بين النخيل في مواجهة قصر نوري السعيد وهي تقذف واجهة المنزل بالرصاص.. وكان قائد المجموعة ضابطاً برتبة مقدم، صارم النظرات، حاد الملامح اسمر مديد القامة مملوء وكنا حوالى العشرة من ابناء المحلة من بينهم حسين حامد قاسم وماجد قاسم والذي صرخ ببساطته المعهودة..

- والنبي هذا الضابط صديق عمي كريم!!

مرت دقـائق اوقف فيهـا اطـلاق النـار فتقدمنا بخطوات نحو قائد المجموعة والشـارع الفـاصل بين الدور ومنزل السعيد لا يتجاوز عشرة امتار ولم يظهر على وجـه القـائـد علامة استياء من وجود جمع من الاهالي حوله وكأنه كان يتمنى لو تجمع عدد اكبر.. تقدمت نحوه بعد ان استأذنت.

- هل تسمح لي بان اسجل هذه اللحظة التاريخية؟

وسأكتب في الصحف هذا المشهد العظيم هل تسمح باسمك الكريم؟

قال بمجـاملة غير معهـودة في مثـل هذه الحـالـة.. ارجو الابتعاد عن منطقة الرمي.. فنحن عندنـا ثورة والافضـل لو ذهبتم الى الشـوارع الخالية. قلت هل نفتش البستان معكم.. وكان جوابه ابتسامة!!

- قلت رجاء هل نعرف اسمك الكريم؟

قال: المقدم وصفي طاهر.

ومضت ساعـة دون ان يصـدر الامـر باقتحام المنزل. مع عدم وجود مقاومة

مضـادة فلم يكن لنـوري السعيـد حرس مسلح سوى خفراء يتناوبون الجلوس امام الباب الاساسي.

وهو جزء من حالة الاطمئنان التي سيطرت على نوري السعيد طيلة حكمه.

ثم مرت دقـائق ودخـل الجنـود المهـاجمـون منـزل نوري السعيد بعد ان احـدثـوا حريقـاً بسيطـاً في شبـاك غرفـة نومـه، لكن الفرصة كانت مواتية امامه للهـروب، فان عدم محـاصرة المنـزل من جميع جهاته الاربع بعد مرور ساعة على بدء القصف يكفي لاختفائه لكن قائد المجموعة كان مطمئناً كما يبدو..

وكـان المنظـر مثـيراً، فالجنـود البسطاء لم يعرفوا معنى الوثيقة، والقيمة التـاريخيـة والـوثـائقية لبيت مثل بيت نوري السعيد فكانوا يقذفون من منافذ الـدار الاوراق والادوات تحت ايعـاز لهم بالتفتيش عنه، وكنا نتمنى لو سمح لنا بجمـع الاوراق على الاقـل.. ومن خلال حمـاس عالٍ استطـاع المتجمهـرون وهم جميعـاً ابنـاء المحلة لبعد البيت عن مركز المدينة، ان يدخلوا مع الجنود ويعبثوا بمـوجـودات الدار، ولم يكن لاحد ان يطالبهم بايقاف العبث وترك الدار بالصورة التي تركت فيهـا قصـور الملك فاروق والتي كانت مجلة المصـور تنشر صوراً عن غرف نومـه واستقبـاله لقد كان الهجوم على المنزل عملية انتهاك واجتياح الحقت ضرراً كبـيراً ليس في المـوجـودات المـاديـة لمنزل رئيس الوزراء ولكن في الوثائق التاريخية والقيمة الاجتماعية له.

المنزل من الداخل

ربما كانت موجودات المنزل مهمة لنا ومثيرة بعض الشيء قياساً الى بيوتنا التي لا تجـد فيهـا حمـاماً ولا غرفاً للنوم ولم نكن نعرف السرير السيسم!! ولكنها الآن بعد ان دخلت بيوتنا ملامح عصرية ـ صرنا نعود بالذاكرة الى موجودات دار نوري السعيد، وهي اقل بكثير مما تضمه منازلنا حالياً فلم يكن فيها اثاث اجنبي ولم تكن في الـدار اجهـزة خاصـة ولا اجهـزة كهـربـائيـة كالموجودة حالياً.. جهاز تلفـزيـون واحـد، وراديـو فيلبس، وغرفة نوم اقرب الى غرف العزّاب. وصالة بلا

ديكـور مع طقم اثـاث مغلف بالقماش المخمل، ولم نجد اثراً لتثمال او تحفة فنية، ربما لان نوري السعيد نفسه يعتبر الفن التشكيلي صنواً للتحريض السياسي، او المتعة الفارغة، فالرجل لم يكن مثقفاً ثقافة ادبية كافية..

وفي حمـام الطـابق الثـاني الذي اتخذ فيه غرفة نومه كانت ما زالت منشفة مستعملة معلقة على غير انتظام وربما كانت قد مست جسمه آخر مرة.

اما غرفة الطعام فكانت تبدو وكأنها لم تستعمل منذ فترة، واغلب الظن انه كان يتنـاول طعـامـه على عربـة صغـيرة متحركة تقدم اليه، علماً انه كان يتناول الخبز العراقي الحار من تنور الجيران بدون محاذير امنية.

قائد الثورة جيراننا!!

لم تكن راديوات الترانزستور معروفة لدينا آنذاك ومضت الساعتان الاولى بدون ان نعـرف معلومـات عن الثـورة حتى اذا خرجنا الى الشارع العام باتجاه مبنى الاذاعة وساحة الملك فيصل الاول. كنا قد عرفنا اسم قائد الثورة ان ماجد حامد قاسم، وحسين حامد قاسم وعـدنـان حامد قاسم وابـوهم صاروا من العائلة الحاكمة بسرعة، وصارت الدار المتـواضعة التي يسكنها حامد قاسم سكناً لرئيس الوزراء الجديد والقائد العام للقوات المسلحة.

وهذه مفاجاه كبيره لم نكن نتوقعها وقد عززت كلام ماجد حامد قاسم الـذي كان قد تعـرف بسـرعة على شخصية قائد المجموعة المهاجمة لنوري السعيد حين قال انه صديق عمه وكانت ضحكات الاستنكار التي قابلناه بها خاطئة.

تحطيم تمثال الملك

وفـوق تخـوت المقهى التي نرتـادهـا يومياً وقف الخطباء يهتفون بسقوط الملكية التي مضى على اعلان سقوطها من الاذاعة اربع ساعات وجرى حوار بين عدد من المتظـاهـرين حول مستقبـل التثمـال الا ان احد ابناء المحلة المعروفين

بطول قامتهم وهو عامل بناء سبق المتحادثين الى تسلق التمثال واشهار نعاله وضرب الجواد، فتشجع سواه وحضرت الحبال بسرعة لسحب التمثال وتدميره بأقل من نصف ساعة. وعلى بعد امتار منه كانت مجموعة اخرى تسحب بالحبال تمثال الجنرال مود قائد الحملة البريطانية لاحتلال بغداد عام ١٩١٧ والقائم في ساحة على باب مبنى السفارة البريطانية، بينما كانت مجموعة ثالثة تعلق جثة الامير عبداله من على شرفة احد الفنادق في الشارع المؤدي الى الجسر الذي حدثت فوقه مجزرة ذهب ضحيتها عدد من المواطنين المتظاهرين ضد المعاهدة العراقية ـ البريطانية، ومن ابرزهم جعفر الجواهري شقيق الشاعر الجواهري.

هروب نوري السعيد

عدنا الى بيوتنا عصراً، كان جمع من ابناء المنطقة يحيطون بدار قائد الثورة ومنهم شيوخنا الكبار، كالعم حسون العيسى زوج خالتي المعروف بنكاته وصراحته، وخفة دمه، والذي كان يلازم الصمت كمن يحمل سراً من الاسرار الكبيرة. وكانت عائلة الزعيم عبد الكريم قاسم قد وضعت الراديو بتصرف ابناء المحلة. وهو يخاطب الجمهور بالتفتيش عن نوري السعيد. وتخصيص جائزة نقدية كبيرة لمن يدلي بمعلومات تساعد على العثور عليه وتهديد من يتستر عليه بالاعدام.

كان البيان يكرر بين ساعة واخرى، وكان السماك حسون العيسى صامتاً على غير عادته وفي داخل المنزل تحلقنا حوله وكان معه خالي وخالتي وابناؤهم، وتناول الحديث مستقبل الثورة، الا ان حسون العيسى تركنا وصعد الى السطح، لكن احداً منا لم ينم تلك الليلة.

لم نعلم ان العم حسون العيسى هو الذي ساعد على هروب نوري السعيد اثناء ما كان في عرض النهر يرمي شباك الصيد، وسمع صوت اطلاق النار باتجاه (منزل الباشا) فجمع الشباك، واتجه مع شقيقه (عبود) الى دار نوري السعيد من

جهة النهر. وقد فوجيء بوقوف الباشا بملابس النوم وبجامته مخططة بلون ازرق ويؤشر اليه بالرسو.. سارع حسون العيسى لسحب قاربه الى الساحل الطيني ومد خشبته لتكون جسراً يعبر الباشا عليه الى القارب..

لم يسلم الباشا عليهما ولم يكترثا لان المشكلة كانت اكبر.

بادره حسون العيسى - خير باشا شكو.. ماكو؟

قال الباشا وقد اصر على الجلوس في بطن القارب، لا شيء ضعوا فوق رأسي اي غطاء واعبروا الى (ذاك الصوب) اي (الضفة الاخرى)..

عاد حسون العيسى - خيرباشا.. احنا حاضرين، قال نوري السعيد - يوجد كم ضابط مقشمرهم جمال عبد الناصر (اي خادعهم جمال عبد الناصر) يطقطقون (البنادق) وأردف قائلاً.. يا الله بسيطة.

واتجه قارب الصيد الى الجانب الاخر وحاول عبود العيسى ان يمد يده الى كيس التبغ ليعد سيجارة للباشا لكنه منعه ان يتحرك فقال حسون العيسى - باشا احنا ربعك.. وانت عدنا واحنا وياك الا على ما حرم الله.

وحين اقترب القارب من الساحل وجد تجمعاً كبيراً للمواطنين فغادر الى عرض النهر واتجه الى الباب الشرقي فكانت الاعداد اكثروكان نوري السعيد يحمل بيده مسدساً.

فسأله العم حسون.. باشا ليش ما تتفضل عندنا؟

قال نوري السعيد اريد ان اصل الى اي بيت تعرفونه على الشط فيه درج ينزل الى الماء حتى نصعد الى البيت مباشرة دون الخروج الى البر.

قال حسون العيسى هذا هو بيت الاسترابادي قال نوري السعيد امشوا اليه..

مضت ثلاث ساعات لكن نوري السعيد لم يعر اهتماماً للصياد وشقيقه وكانه متفضل عليهما بهروبه!!

وهذه مسالة آلمت حسون العيسى اول مرة لكنه بادره الى القول:

باشا لا تنزل البلم (القارب) ابقى معنا وواحد من عدنا يعبر الشط سباحة

ويعود بنا بزورق آخر مع الطعام المطلوب.. ابق معنا بأمان.

لكن نوري السعيد لم يكن يريد ان ينجو بنفسه وانما كان يريد ان يصل الى السفارة البريطانية او الامريكية ليبدأ العمل المضاد ولهذا رفض الفكرة. عاد اليه حسون العيسى باقتراح آخر: باشا تعال عدنا بالبيت واحنا زلمك وهذي ملابسي البسها ولا يمكن ان يتعرف عليك احد..

هنا انفجر نوري السعيد بوجهه وقال: اسمعوا يا جماعة.. انني ما مهزوم، لكن اريد اتصل باي بيت حتى نؤدب هذوله الزعاطيط (الاطفال) قشامر جمال والشيوعيين ولا اريد منكم ان تقلقوا وسأجازي اتعابكم.

قال العم حسون.. باشا احنا ما نريد شي.. احنا نعرف ابو ناجي ما يسكت على الشيوعيين واحنا نعرف اشصار بحركة رشيد عالي، وانت جارنا وفضلك علينا ما ننساه.

وحين وصل القارب الى الدار المطلوبة صعد بنفسه اولاً ولم يسمح لهما بجس النبض. وقال لهما انتظروا حتى ارسل لكم الخبر.

لكنه غاب ثم اشار احد ساكني الدار لهما بالانصراف.. ومضى يوم ثم القي القبض على الباشا بملابس امرأة فقتل في الشارع وسحبت جثته، واحيل حسون العيسى وشقيقه الى المحكمة العسكرية الخاصة التي تسمى محكمة المهداوي، وبايعاز من عبد الكريم قاسم صدر القرار باخلاء سبيلهما واطلاق سراحهما بعد محاكمة جريئة ظهر فيها حسون العيسى وهو يسأل المهداوي لو دخل الباشا عندك هل تستطيع ان تقول له لا.. اذن اين الشهامة؟

هذه المعلومات كان حسون العيسى يتحدث بها الينا بعد ساعة من القاء القبض على نوري السعيد، وهو يتالم لأن نوري السعيد لم يسمع كلامه وياتي معه الى منزلنا.

اي ان خطة العم حسون العيسى لو انها نجحت لكان نوري السعيد مختفياً معنا في الدار فكيف كنا سنتصرف؟

هل كنا سنخبر عنه السلطة بدافع الحرص على الثورة وننسى قيم الدخالة العـربيـة والامـانة ام نحميه تحت تأثير هذه القيم وباعتباره (دخيل)؟ لا ندري؟ والله اعلم.

الساعة العاشرة والنصف ليلاً

وفي الساعة العاشرة والنصف ليلاً حضر الزعيم عبد الكريم قاسم الى داره وهـو يرتـدي قميصـاً عسكـرياً وبنطلوناً وسدارة، ويحمل بيده رشاشة صغيرة. وسلمنـا عليـه واحداً واحداً وكان زر قميصه ما قبل الرقبة مقطوعاً اثناء الحركة، فنهضت ابنة شقيقه السيدة فردوس واخذت زراً من قميص قديم وخاطته دون ان تعلم ان الـزر الجـديـد يتشكل من اربعة ثقوب وازرار القميص من اثنين فظهر ذلك واضحاً في اول صورة نشرت له في الصحف.



العائلة المالكة العراقية

ان الحديث عن العائلة المالكة العراقية ضروري، قبل الحديث عن ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨، التي انهت آخر ملوك الهاشميين في العراق، وهو حديث لا يستقيم ما لم نمر، ولو مسرعين بالشريف الحسين بن علي، ملك الحجاز ومؤسس الحكم الملكي الهاشمي في العصر الحديث.

ولد الشريف الحسين بن علي عام ١٨٥٣، في اسطنبول، من ام شركسية اسمها وسيلة خانم، وهو ينتسب الى سلالة ذوي عون، التي دخلت في منازعات وتناوبت الشرافة على مكة مع خصومهم ذوي زيد، وكلاهما من الاشراف، الذين ينحدرون عن الهاشميين الاوائل.

تولى الحسين الشرافة على مكة، بعد اعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨، رغم ان السلطان عبد الحميد، الذي اصدر مرسوم تعيينه، كان يعتقد بانه سوف لا يكتفي بالشرافة على مكة، بل سيطمح الى اكثر منها، وربما هدد عرش السلطنة العثمانية لانه كما يقول رجل خطر.

وهذا الذي كان، اذ بدأ الحسين يخطوا نحو توسيع مساحة عمله، وعدم الاكتفاء بادارة شؤون البدو والقبائل، الموكلة عادة الى شريف مكة، منذ منتصف القرن التاسع عشر، بل راح يمد يده الى شؤون ادارة المدن، التي كانت من صلاحيات الوالي. وتسبب ذلك في خلافات ادت الى تغيير خمسة ولاة في ثمانية اعوام!.

كان الحسين مشبعاً بروح قومية ومشاعر وتصورات في الزعامة العربية المستمدة من حقه الهاشمي. فاذا كان لملوك مصر من ابناء محمد علي حق في الوصول الى سوريا وفلسطين والحجاز، وهم ليسوا من السلالة العربية فلماذا لا يكون لسليل النبي مثل هذا الحق الذي كتم التعبير عنه الى ان وافته الفرصة

للثورة على الاتراك في اول محاولة لتشكيل دولة قومية مستلة من الدولة العثمانية. اما الامير فيصل فقد كان مندوب والده الى الثوريين العرب في الشام واسطنبول، كما كان مندوبه الى الدول الاوروبية ذات الشأن.

ينقل عنه انه كان على مائدة الافطار في بيت بالقابون على بعد خمسة اميال من دمشق، حين اطلع في جريدة الشرق على خبر اعدام الوالي التركي جمال باشا لسبعة من الزعماء العرب في ساحة المرجة بدمشق، واربعة عشر منهم في ساحة البرج ببيروت. فقرأ الحاضرون الفاتحة على ارواحهم، غير ان فيصل قفز واقفاً كمن اصابه مس مفاجىء، فانتزع الكوفية من على رأسه ورمى بها على الارض وداسها بعنف وصاح... طاب الموت يا عرب. وترك الشام عائداً الى الحجاز، حيث اعلن والده الثورة على الاتراك يوم ١٠ حزيران ١٩١٦، بينما كانت عوائل شهداء الحكم التركي تحتفل بالذكرى الاربعين لاعدامهم.

وبعد عامين دخلت قوات الامير فيصل بن الحسين سورية وهي تتسابق مع القوات الانكليزية للوصول الى دمشق، لتبدأ مرحلة جديدة في حياته وقد صار مركزاً لتجمع قومي استقطب عواطف الشارع السوري وتأييد زعمائه سواء في الشام ام في بيروت ام في فلسطين. الى ان اعلن المؤتمر السوري عن تتويجه ملكاً على سورية بحدودها التي تضم فلسطين ولبنان، يوم ٨ آذار ١٩٢٠ في احتفال اقيم في ساحة المرجة، وفي المكان الذي جرى فيه اعدام زعماء الحركة العربية، ولم يوافق موارنة لبنان على الحياة في المملكة السورية كما لم توافق بريطانيا وفرنسا التي دفعت الموارنة لاعلان استقلالهم، وتمردهم على المملكة السورية. ثم دخول الفرنسيين الى جانب موارنة لبنان، واحتلال جزء من سورية، بعد انكسار قوات الملك فيصل، التي قادها الشهيد الثائر يوسف العظمة في معركة ميسلون، واخرج الفرنسيون الملك الجديد، الذي كان قد اعلن انفصال سورية عن مملكة الحجاز، واظهر تحولاً عن اتجاه الوحدة العربية الشاملة، مفضلاً قيام دول عربية مستقلة، ولا ندري هل كان هذا التحول، وهو خروج واضح عن اهداف أبيه بسبب واقعيته وايمانه بان السياسة فن الممكن، ام كان يترجم في ذلك المطامح البريطانية والفرنسية؟.

ان الحسين كان يرى في نهاية مملكة فيصل، عقاباً له على خروجه عن اهداف الثورة العربية. وفي عام ١٩٢١ ذهب وفد من زعماء العراق الى الحجاز لمقابلة الحسين وايصال رغبة العراقيين بتتويج ابنه فيصل ملكاً عليهم. فلم يبد الشريف حماساً لهذا الطلب، لسببين كما نعتقد:

الاول: ايمانه الوحدوي، واعتقاده بان تشكيل ممالك عربية، عمل موجه ضد طموحاته بقيام مملكة عربية واحدة.

والثاني: خشيته من ان يعامل اهل العراق فيصلاً، كما عاملوا جده الحسين من قبل!. ولم يخفِ ذلك على حاضري المجلس، فتصدى له احدهم بالقول: «سيدي لقد تغير الزمن، وان اهل العراق اليوم ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي عليهما السلام، فهم الآن يقومون باكرام الضيف وخدمة ملكهم). وعندها ضرب الحسين كفاً بكف وصاح بلهجته الحجازية... :

«يا عيال نادوا فيصل»

فنودي عليه.. وصار فيصل بن الحسين اول ملك على العراق، لكن الحسين لم يوافق على التحاق عائلته به، على كثرة الشفعاء الذين كانوا يرجونه السماح للعائلة الالتحاق بالملك، لا سيما زوجته واولاده، وهو حق من حقوقه الشرعية، فلم يوافق الا بعد ثلاث سنوات، وكان يقول (انني أخشى عليهم من السبي الذي تعرضت له عائلة الحسين بن علي عليهما السلام). ولعله ما كان سيوافق لولا مغادرته الحجاز، على اثر تنازله عن العرش.

وبعد وفاة الملك فيصل الاول المبكرة، اخلفه ابنه غازي الاول، الذي عرف بميول قومية نسبت فيما بعد الى آثار هتلرية، بينما كانت في الواقع آثاراً من طموحات جده الشريف الحسين بن علي. وقد قتل الملك غازي في حادث سيارة اتهم فيه الانكليز وابن عمه الامير عبد الاله، الذي اصبح وصياً من بعده على عرش العراق طيلة (١٤) عاماً ابتداءً من عام ١٩٣٩ حتى تتويج الملك فيصل الثاني عام ١٩٥٣. وهي فترة سوداء ليست في تاريخ العراق، فحسب، بل في تاريخ العائلة الهاشمية.

كان الامير عبد الاله بن علي بن الحسين منبوذاً في الاوساط العامة، وكان

يرسم خارطة لسلوك منحرف الى جانب الانحراف الواضح في خطه السياسي، فقد عرف بالـولاء الكـامـل للمصـالـح البريطانية والعبث بمقدرات البلد، ومصادرة الحـريـات الديمقراطية، مما دفع بالجيش العراقي الى اعلان الثورة على سياسته والتجـائـه الى القـوات البـريطانية المعسكرة في العراق عام ١٩٤١ ثم عودته الى الحكم بواسطتهـا، ومـا اعقب ذلـك من اعدامات وانتكاسات سياسية، ابدت فيها الحـركـة الـوطنية جدارة كفاحية وقدرة تنظيمية ضد الامير عبد الاله وحكومات نوري السعيد ورعيل من معتمدي السياسة البريطانية في العراق.

● آخر ملك هاشمي

ان كثـيراً من البسطـاء، كانـوا يعتقدون بان الملك فيصل الثاني سيستعيد سيـاسـة والده وجده، وكانت حادثة وفاة والده الدراماتيكية وما نسج حول ابيه من اساطير سبباً في ايجاد تعاطف معين معه.

اما خاله الوصي على عرش العراق الامير عبد الاله، فقد وضع مخططاً تربوياً لفيصـل، منـذ ان تركـه والده طفلاً في سنواته الاولى، لتنشئته نشأة قاصرة، يظل فيها فيصل غير قادر على اداء دور مستقل، ولو في شؤونه الشخصية.

كانت شخصيـة فيصـل الثـاني، مهـزوزة، خائفـة، يلاحقه الشعور باليتم والحاجة الى ولي الامر، حتى قبل اسابيع من مقتله. ولم يكن له نشاط في السلطة بعـد ان اعتـلى عرش العـراق في مايس عام ١٩٥٣، ولم يكن قادراً على الحديث مع وزرائـه، وهم من كبـار محترفي السياسة، كما لم يكن له المام في الشؤون العراقية والعـربيـة. وكـانت لغتـه العـربيـة ضعيفة، وقدرته على الكتابة فيها لا تتجاوز المستـوى العـام لطـالب في الـدراسة المتوسطة والذي يبدو ان خاله قد ضيّق من حدود تفكـيره، ونمـو شخصيتـه، وحـال دون اكتمـالها حتى بعد تجاوزه الثالثة والعشرين من عمره.

وفي حالات سفـر عبـد الالـه يترك لفيصل بعض المهمات الخسيسة من تلك الاعمال والمهمات التي يقوم بها افراد الشرطة كتكليفه بالبحث عن بندقية عليها شارة الجيش المصـري، واستغـلالهـا اعـلامياً للتدليل على مؤامرات الجمهورية العربية المتحدة ضد نظام حكمه.

ان الملك فيصل يعترف فيما يبدو انها آخر رسالة يكتبها قبل وفاته الى خاله ـ

بانه بدأ يتدخل في كل الامور، وكأن فيصل نفسه لا يدري اذا كان ملكاً، ام لا يزال طفلاً قاصراً في احضان خاله؟!.

فهذا الملك على عرش العراق الذي يأتي اسمه بعد الله، وقبل الوطن في الشعار الملكي المكتوب على واجهات الدوائر الحكومية ومعسكرات الجيش، مذعور من حادث مؤسف تعرض له في بحيرة الحبانية وهي تشبه في هدوئها بركة سباحة حيث ادت حركة السفينة باحد اصدقائه الى القيء، كما جاء في رسالته. وهو يعكس حدود تفكيره الضيقة التي وضعه فيها عبدالاله.

ولعل عبد الاله كان يتعمد اذاعة النشرات الصحية عن الملك فيصل الثاني والتي تدور حول تزحلق قدميه في الحمام واصابة يده بكسر، او حول اصابته بخدش اثناء تدريباته الرياضية!...

ان عبد الاله كان الملك الفعلي حتى يوم ١٤ تموز.

ان ذلك لم يكن بعيداً عن تصور الضباط الاحرار، حين جرى الاتفاق بينهم في حالة نجاح الثورة، على ابعاد الملك فيصل الثاني دون تحميله مسؤولية ما، واحالة خاله الامير عبد الاله ورجال العهد الملكي الى محكمة لمقاضاتهم. فكيف قتل الملك فيما بعد.

● مقتل الملك فيصل الثاني

أثار مقتل الملك فيصل الثاني، تساؤلات بين الناس البسطاء، انتقلت الى الضباط الاحرار، ممن شاركوا في الحكومة الاولى او ممن لم يشاركوا، وكان السؤال المطروح.. من قتل الملك؟

ان الضباط الاحرار يؤكدون في مذكراتهم بان قراراً لم يتخذ بهذا الصدد، وان عبد الكريم قاسم لم يتطرق الى هذه القضية، بل كان يتجاوزها، الا ان رأياً كان يتوجه بمسؤولية ذلك الى عبد السلام عارف المنفذ الفعلي للعملية العسكرية يوم ١٤ تموز/ ١٩٥٨. لا سيما بعد ابعاده عن مسؤولياته.

سألت السيدة وفاء عبد السلام عارف عما تتذكره من احداث ثورة ١٤ تموز، فقالت انها تتذكر دخول والدها لاول مرة الى منزلهم الذي انتقلوا اليه بعد ايام من قيام الثورة، اذ جرى انتقالهم من معسكر جلولاء الى دار في معسكر ابي غريب، فعاجلته والدتها، قبل السؤال عن حاله بقولها: ما تخافون الله لش

قتلتوا هذا الطفل! وتقصد بذلك الملك فيصل الثاني.

فقال لها في الحال.. كنت اريد ان اتعامل مع العائلة المالكة على طريقة جمال عبد الناصر، في توديع فاروق واطلاق المدافع والقاء التحية، لكن الحيّة لازم تنسحك من راسها.. وهذا هو الذي حصل.

ولا استبعد وقوع هذا الحوار بين عبد السلام عارف وزوجته، والذي كان آنذاك يعبر عن موقف عبد الكريم قاسم ايضاً.

اغلب الظن ان عبد الكريم قاسم هو الذي قرر تصفية العائلة المالكة بمن فيها الملك، للادلة والاسباب التالية:

١ ـ عدم الوقوع في خطأ حركة بكر صدقي، وحركة مايس التي ابقت على حياة الامير عبد الاله.

٢ ـ ان ابقاء الملك حياً يجعل المطالبة بالعرش مرة ثانية امراً ميسوراً وقانونياً.

٣ ـ كان عبد الكريم قاسم ينتقد اجراء جمال عبد الناصر في توديع الملك فاروق، وهو يعتقد ان استخدام الحسم الثوري في تلك اللحظة اجدى.

٤ ـ سبق لعبد الكريم قاسم ان وضع مخططاً لتنفيذ الثورة في ٦ كانون ١٩٥٨، يقتضي ان يقوم عدد من الدبابات بفتح النار على المنصة التي يقف عليها الملك وعبد الاله ورئيس الوزراء، وذلك عند مرورها من امامهما، خلال الاستعراض العسكري الذي اقيم بمناسبة تأسيس الجيش العراقي، على ان تقوم الوحدات الاخرى الموالية للحركة بالواجبات التي ستعهد اليها، لكن الاكثرية في اجتماع اللجنة العليا للضباط الاحرار، عارضت خطة عبد الكريم قاسم، وذلك كما يقول الضباط أنفسهم للخطر الذي سيهدد ارواح الكثيرين من الابرياء، كما انه من غير الاكيد ان النيران التي ستفتحها الدبابات ستصيب الاشخاص المطلوبين.

ولو اتيح لهذه الخطة ان تنفذ لكانت قد سبقت الخطة التي وضعها ونفذها الشهيد خالد الاسلامبولي لاغتيال الرئيس المصري، انور السادات والتي سميت بحادثة المنصة، سوى ان الاسلامبولي كان يمتلك بندقية ولم يمتلك دبابات.

لقد انتهى بمقتل الملك فيصل الثاني، حكم آخر ملك هاشمي في العراق، واسدل الستار على هذه العائلة، التي عرفت بالولاء الشديد للمصالح البريطانية، كما عرفت بعدم ميلها للثراء الاسطوري الذي يرافق حياة الملوك

والامـراء، ولم تكن لهـا قصـور، على غرار القصـور الملكية في مصروايران، اذ مات فيصل الاول في دار تعود لهيئة السكك الحديدية. وبنى غازي الاول قصر الزهور الـذي قتـل على مقـربـة منه فظل مهجوراً لعدة سنوات وعلى مقربة منه اقيم قصر الرحاب الذي بناه الامير عبد الاله، حيث قتل فيه مع الملك فيصل الثاني والعائلة المـالكـة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨، ولم يكن هذا من القصور الفارهة، ولم يعثر فيه على نفـائس ملكيـة، وقـد سمي بقصـر النهـاية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، واستعمل معتقلاً لتعذيب المعارضين بعد ١٧ تموز ١٩٦٨، وقد تحولت غرفة الامير عبد الاله الى مكتب لنـاظم كزار مديـر الامن العـام آنـذاك، وجـرى تهديم القصر بعد اعدام الاخـير. ولم تجرِ احـاديث عن فضـائـح ملكيـة، كالتي رافقت حياة فاروق مثلاً، باستثنـاء ما اثـيرَ من انتقادات ضد سلوك الامير عبد الاله، الذي انغمس في حياة العهـر والمجـون. وبـاستثنـاء حادثـة فرار احـدى شقيقـات الملك غازي مع سائقها،بعد قصة حب انتهت بزواجه منها. ولم تعرف اسماء نسوية من العائلة المـالكـة ساهمت في النشاط السياسي ولم تكن العائلة المالكة العراقية تضم عدداً من الامـراء كافيـاً لاعـداد الامـيرات اللواتي تجمعن في بيت صغـير في ضاحيـة المنصور ببغداد.

وقـد تركت العـائلة المـالكـة جميعها خمس سيارات هي مارسيدس اهداها هتلر الى الملك غازي، وبكـارد امـريكيـة، ورولـزرويس انكليـزية، وكاديلاك، مع سيـارة جاكـوار اسبـورت كانت تـعـود لعبد الاله. والسيارات معروضة الان على الجمهـور العـراقي في مكـان خصص لها داخل منتزه الزوراء ببغداد ولعلها تقوم بدور دعائي كبير للعائلة المالكة.

نوري السعيد

لم يكن خطأ ان يسمى النظـام الملكي في الاوسـاط الشعبيـة بعهـد نوري السعيـد، الـذي تراس اكثـر من عشـر وزارات خلال ٢٨ عامـاً. وكان رجل العـائلة الهاشمية بلا منازع، ليس في العراق وانما في الحجاز وسورية وفلسطين..

بدأ السعيـد صلاتـه بالجمعيات القومية التي كانت تدعو لاستقلال البلاد العـربيـة عن الـدولة العثمانية منذ ان كان طالباً في الكلية الحربية باسطنبول،

حتى إذا أنهى دراسته، وجد الفرصة مواتية للعمل القومي، مع الشريف الحسين بن علي، الذي انتدبه في عدد من المهمات السياسية، بعد ان تلمس طغيان ملامحه السياسية على حرفته العسكرية.

وكان الى جانب الامير فيصل، في مرحلته السورية، وممن ساعدوا على تتويجه ملكاً على سورية، على ان يكون الأمير عبد الله بن الحسين ملكاً على العراق.

كما كان من رجال الملك فيصل الاول بعد خروجه من سورية وترشيحه لعرش العراق فيما بعد، واستلام نوري السعيد لعدد من الحقائب الوزارية الى أن ترأس اول وزارة في ٣٠ آذار عام ١٩٣٠.

ان مراجعة برنامج نوري السعيد الوزاري وخطواته العملية في وزارته الاولى، ترسم حدود مذهبه السياسي وافكاره الثابتة حتى آخر وزارة شكلها، وسقطت بقيام ثورة ١٤ تموز / ١٩٥٨.

كان نوري السعيد قد عاد الى العراق على ظهر باخرة بريطانية في حملة احتلال البصرة اثناء الحرب العالمية الاولى، وقد ظل وفيًا للظهر الذي حمله حتى ساعة مصرعه يوم ١٦ تموز / ١٩٥٨.

الا أن ولاءه البريطاني لم يكن كما يبدو اعجاباً بالنموذج السياسي لبريطانيا، مع أن شكل الدستور العراقي كان يوحي، بان الملك مصون غير مسؤول، وان الحكم برلماني يعتمد على تعدد الأحزاب، وحق العمل السياسي المشروع، سواء داخل الاحزاب ام خارجها واعتبار السلطة التنفيذية خاضعة للسلطة التشريعية الممثلة في المجلس النيابي المنتخب. وهو أمر كان قائماً بشكل وآخر. غير أن نوري السعيد بدأ رئاسة الوزارة الأولى بحل البرلمان واجراء انتخابات لصالحه تمهيداً لعقد معاهدة مع بريطانيا. وقد تم له ذلك في ٣٠ حزيران عام ١٩٣٠، وسط احتجاج الزعماء الوطنيين، ومظاهرات الشارع العراقي، واستخدام حكومة السعيد للقوة لأول مرة في العهد الملكي ضد المتظاهرين والمضربين عن العمل احتجاجاً على عقد معاهدة / ١٩٣٠.

ان نوري السعيد في هذه الوزارة. وخلال ستة شهور، هو نوري السعيد نفسه خلال اكثر من عشرة وزارات متعاقبة و (٢٨) سنة من الحكم.. رفض المعارضة ولو كانت برلمانية.. وحل البرلمان وان شكل المعارضون فيه اقلية لا تتجاوز عشرة بالمائة، مقابل تسعين بالمائة لصالحه وارتباط مع بريطانيا على مستوى المعاهدات. وعدم احترام التعبيرات المشروعة للرأي العام في الشارع العراقي.

لقد حلَّ نوري السعيد البرلمان مقابل شرط استلام رئاسة الوزارة الاخيرة له، لانه كان يضم (١٢) معارضاً من مجموع (١٣٥) نائباً.

وأقام برلمان التزكية الذي عقد حلف بغداد. وسط معارضة محلية وعربية ساخنة ضد الارتباط بسياسة الأحلاف العسكرية.

ان نوري السعيد لم يكن ثعلباً ماكراً كما يوصف، ولم يكن داهية، كما يقول انصاره. لقد كان اقرب الى رجل العقيدة الثابت على موقفه، من السياسي المحترف. فلم يتنازل مرة عن اعلان موقفه السياسي هذا. ولم يكن يتردد عن مراجعة السفير البريطاني او الأمريكي في دارهما لأخذ المشورة في موقف ما، كما اعلن ذلك الدبلوماسيون البريطانيون والأمريكيون في مذكراتهم.

وكان اقرب الى الصوفي منه الى رجل الحكم، فقد كان زاهداً عن ملذات الحياة، ولم يترك بعد خمسين سنة من العمل السياسي ثروة طائلة، ولعله لم يكن يعرف الطريق الحديثة في الايداع بالمصارف الأجنبية. لقد فقدت بريطانيا بفقده آخر مجاهديها في الشرق الاوسط. تاركة الفرصة لنمط آخر من السياسيين الذين يشتمونها في الهايدبارك. وينامون على فراشها في بيكادللي سيركس.

٤

مستجدات الشارع السياسي

رافق ثورة ١٤ تموز بروز ظواهر اجتماعية وسياسية، لم تكن معروفة في العراق قبل الثورة، وهي على الرغم من انها فاجأت الشارع العراقي على حين غفلة، فلم تكن ظواهر طارئة، ففي التحولات الكبرى السريعة، كحالة الثورة، تولد ظواهر ومعايير تأخذ رد الفعل أحياناً، ومسايرة الفعل بنفس الأتجاه في أحيان أخرى.

لم تلد الظواهر في الثورة ولادة قيصرية، وانما كان بعضها كامناً تحت غلاف مختوم، بحكم المرحلة النضالية التي مارست فيها الأحزاب السياسية في العراق، نشاطها تحت الأرض او خلف الجدران المعتمة، فكانت الثورة فرصة لبروز حالات سياسية، اعتبرت جديدة على الشارع الشعبي، بينما كانت قائمة في مرحلة الفعل المكتوم.

وكان متوقعاً ان تستحدث الثورة، بتخطيط او بحكم الواقع، مستجداتها الخاصة، كالتشريع القانوني، والشعار السياسي، والمصطلح اللغوي، والا فهل تسمى ثورة تلك التي تبقي ظواهر الحياة العامة كماهي على الرغم من التحول الكبير في الواقع السياسي والقانوني.

ان ثورة ١٤ تموز عمل تعرضي ضارب، امتد على حصون القرون الوسطى. فأحدث في جدرانها الحجرية فتحات ومنافذ، وتحرش باصول موروثة، وتطاول على مراكز النفوذ الاستراتيجي لبريطانيا، وسبب خسائر كبرى لحاملي اسهم شركة نفط العراق من الفرنسيين والهولنديين والأمريكان، وكسر قيود الفلاحين، وأقام علاقات اجتماعية جديدة، في الريف والمدينة، فهل سيكون بعيداً عن فعل الثورة، رد فعل المصالح المتضررة؟، فضلاً عن ان اي تغيير اجتماعي، ! انماهو في الوقت نفسه حالة فرز طبقية، خارجة من طبيعة الصراع الطبقي. الا أن الملاحظ في الانقسامات السياسية، في اعقاب ثورة تموز أنها لم تكن نتاجاً نقياً لذلك الصراع، فقد حدث خلط طبقي لا يمكن معه تصنيف معارضي حكومة الثورة ضمن الطبقات المتضررة، مع الاقرار بان الاقطاع المهزوم، والعشائرية المغلوبة،

لم تكن بعيدة عن اداء دورها العادي في الاصطفاف مع معارضي الثورة.

وكدليل على هذا الخلط الطبقي، انحياز مدن كاملة مع الثورة، ونفور مدن اخرى من حكومة الثورة. ان السبب الواحد كان يخلق حالتين متضادتين يقترب فيها فريق و يبتعد فريق، وكأن كل خطوة كانت تولد رد فعلها باتجاهين متعاكسين، مما خلق حالة يصعب فرز دوافعها او تقييمها، على انها من عوامل قوة الثورة، او عوامل ضعفها.

ان المحكمة العسكرية الخاصة، كانت احدى التعبيرات المخلصة لثورة ١٤ تموز، لكنها في الوقت نفسه سببت اشكالات لحكومة الثورة، على الصعيد المحلي والعربي والدولي. وكان قانون الأحوال الشخصية مكسباً يحظى باهتمام وتعاطف كثير من الفئات، لكنه في الوقت نفسه كان سببا في استفزاز الأصول الدينية، في مجتمع يقر دستوره المؤقت باغلبيته الاسلامية المطلقة. وكذلك الحال مع كثير من الاجراءات الوقائية والمعالجات الآنية. وان النشيد الثوري حين يتحول الى تمجيد شخصي فهو لا يكسب للثورة انصاراً بقدر ما يبعد عن حكومتها الكثير ممن لا يحبون في الثورة جانب التمجيد الشخصي.

اما الظواهر المنفلتة الأخرى، فقد كان أثرها بالغاً على مسيرة ١٤ تموز بالشكل الذي سنتناوله لدى استعراض عدد من هذه الحالات والظواهر.

● سحل الجثث

رافقت الهجوم العسكري على قصر الرحاب فجر ١٤ تموز، دعوات اذاعية من الثوار الى المواطنين كافة، بالخروج الى الشوارع ومساندة الجيش في حركته المباركة. فتدفقت الجموع الغفيرة الى الشوارع، وازدحمت عند المراكز المهمة، كقصر الرحاب، ودار الاذاعة، و في تلك الاثناء كانت المجموعة المكلفة بمهاجمة قصر الرحاب، قد انتهت من قصف القصر وقتل من فيه، فتبرع الضباط القائمون بالهجوم بالجثث، وسلموها هدية الى تلك الجموع، التي سارعت لربط الحبال بكل جثة، وسحلها واحداً عن واحد، فعلقوا جثة عبد الأله في شارع الكرخ،

متدلية من شرفة أحد الفنادق، ثم انزلت وسحلت الى وزارة الدفاع في باب المعظم، فعلقت في المكان الذي اعدم فيه العقيد الثائر صلاح الدين الصباغ، من قبل العهد الملكي عام ١٩٤٥.

ولدى القبض على نوري السعيد وانتحاره، حدث شيء مماثل اذ سحبت جثته في الشوارع، حتى تهرأت وتقطت الى عدة اجزاء، وقد شاهدت قطعة من جثته، كما شاهدت جثة عبد الأله وقيل لي انها بقية من عجزه.

لم تدرس هذه العملية اجتماعياً، وانما اكتفي بعرضها على انها عنف ثوري، قامت به الجماهير المضطهدة ضد الطغمة الملكية واعوانها.

ان الأحزاب السياسية باركت هذه العملية، من هذا المنطلق، كما اعتبرتها شعوب المنطقة نوعاً من العنفوان المنسوب الى العراقيين. وما زال البعض من العرب يعتمدون على ظاهرة سحل الجثث في ١٤ تموز لتقييم العراقيين على انهم شجعان تصدوا للطغاة فسحلوا جثثهم في الشوارع.

فهل كانت هذه الظاهرة عنفاً ثورياً؟ كما يقول المنظرون الثوريون. و هل كانت مرجلة من مراجل الشعب العراقي؟ كما تقول شعوب المنطقة.

اننا نرى غير ذلك، ونعتقد بان سحل الجثث، كان عملاً بربرياً جباناً، ليس فيه من العنف الثوري والشجاعة مثقال ذرة. ان الجماهير العراقية في ١٤ تموز، لم تقتحم القصور المحصنة لاسقاط الطغاة، كما حدث في الثورات الفرنسية والكوبية والايرانية. ولم تواجه الطغاة ودباباتهم في تلك الساعة، لكي يكون سحل الجثث نتيجة لانتصارهم، وهم عزل على رجال العائلة المالكة والحكم الملكي. انما وصلت الجماهير الى تلك الأماكن، بعد ان انتهى العسكريون من انجاز مهمتهم الاقتحامية، فتسلم الشارع جثثاً و أكواماً من الجثث. فمتى كان التمثيل بالجثث عنفاً ثورياً؟ ومتى كان ربط الميت بالحبل وسحبه على الأرض عملاً شجاعاً؟ في مجتمع عاش على وصايا دينية بتحريم التمثيل بالجثث.

ان قيادة الثورة لا تستطيع التخلص من مسؤوليتها، وليس صحيحاً ان الجماهير هي التي فعلت ذلك، بدليل عدم وجود جثة الملك فيصل الثاني مع الجثث المسحولة. مما يعني ان قراراً تم تنفيذه في تلك اللحظة، بتحديد من تسلم

جثته الى الشارع، ومن تحفظ بعيدة عنه. وباعتقادنا فان مردود ذلك قد انعكس على عبد الكريم قاسم نفسه حين تشجع خصومه في ساعة قتله، على تكليف أحد الجنود بمسكه وهو ميت من شعر رأسه والبصاق عليه، امام عدسة التلفزيون التي نقلت المشهد الى الرأي العام. وهو مشهد فيه من الخسة بقدر ما في سحل الجثث منها. ان تشجيع الناس على عمل بربري بدأ مع بداية سحل الجثث، ولن ينتهي بالبصاق على جثة زعيم وطني نزيه كعبد الكريم قاسم. لكن الخطأ يتوالد ويتساند، ويصبح ظاهرة عامة.

● المقاومة الشعبية

نعتقد ان صاحب فكرة الشعب المسلح أو المدرب على السلاح هو الملك غازي الأول. الذي شغف باقامة معسكرات (فتوة) وبأناشيد الحرب، مع انه لم يحارب احداً في زمانه، لقد لاحت له من بعيد رؤوس الحراب، ونادى الفتوة للجهاد، فودع كل واحد منهم أمه - كما يقول النشيد المعروف - في طريقه الى المعركة.

الا ان جهود الملك غازي، اثمرت بعد موته، حين كلفت كتائب الشباب بحراسة العاصمة والمدن الاخرى، اثناء توجه الجيش العراقي لمقاتلة البريطانيين في لواء الدليم عام ١٩٤١. وظهرت التنظيمات المسلحة، مرة أخرى في اعقاب ثورة ١٤ تموز / ١٩٥٨ بقرار من القائد العام للقوات المسلحة، وسميت المقاومة الشعبية، اسوة بالمقاومة الشعبية في البلدان الأشتراكية، أو تلك التي واجهت الجيوش النازية. فانخرط فيها العديد من الشباب، وظهرت في الصحف صور لنساء وعجائز يتمنين، ان يكتب الله لهن شرف الانتساب للمقاومة الشعبية والاستشهاد، في مقاتلة العائلة الملكية، التي لم يبقَ منها سوى المقبرة الملكية.

لقد انتهى الصراع على المقاومة الشعبية لصالح الحزب الشيوعي العراقي، الذي كان يشرف على تنظيماتها من خلال كوادره العسكرية. ولم يكن

ذلك غريباً على التراث الفكري والتنظيمي للأحزاب الشيوعية العالمية التي عرفت فكرة الشعب المسلح، واستخدمتها في مقاتلة وطرد الجيوش النازية، وتحتفظ ساحات صوفيا وبراغ ووارسو وبلغراد بتماثيل العديد من هؤلاء المقاومين الأشداء.

حدث في اليوم الأول للثورة ان اجتمع ابناء محلة العباسية في كرادة مريم لتدارس ما يجب عليهم القيام به لحماية الثورة، فقرروا تشكيل مجموعة، لفَّت على اذرعها شريطاً من القماش الأبيض، مكتوباً بالاحمر (المقاومة الشعبية). مستفيدين مما سمعوه عن المقاومة الباسلة لشعب بورسعيد ضد العدوان الثلاثي. وتوجهوا في اليوم التالي الى ساحة القتال في شارع الرشيد، لتحطيم الواجهات الضوئية للمحلات التجارية، وقد كانت حصة محلات جميل شمعون في السنك كبيرة جداً من التدمير، لاعتقادهم بانه من سلالة كميل شمعون!

اغلب الظن ان عشرات آخرين تصرفوا مثل هذا التصرف، سواء قبل الأعلان الرسمي عن تأسيس المقاومة الشعبية، أم بعده.

الواقع ان لا صلة بين المقاومة الشعبية في العراق وبين المقاومة الشعبية في بولونيا. ولا بينها وبين الميليشيات الشعبية التي نسمع عنها في جبل لبنان وفي بيروت هذه الايام.

ان التشكيلات المسلحة للتنظيمات الأهلية منذ قيام ثورة ١٤ تموزوحتى الان على انها مختلفة الاتجاه، فانها تتفق بما يلي:

اولاً: انها أسست بعد سقوط النظام ولم تساهم باسقاطه وان افرادها تطوعوا للقتال بعد انتهاء القتال. اي انها تأسست في ظل حكومة او سلطة او حزب حاكم مساند لها، ولم تؤسس في عهد المعارضة.

ثانياً: لم تخض معركة مع قوات غازية او لطرد جيش محتل.

ثالثاً: يسجل لجميع هذه التشكيلات الأهلية المسلحة، انها فتكت بالمواطن الأعزل، واستبسلت في مقاتلة ابن الجيران! واعتقال الزميل والاستاذ، دون اي اعتبار اجتماعي.

رابعاً: انها تنظيمات حكومية اسوة بالأمن والمخابرات والشرطة، مع وجود

فارقين: فهي (اي التنظيمات المسلحة الاهلية) لا تستلم رواتب مقابل خدماتها ولا تلتزم بانضباط عسكري، كالتنظيمات الحكومية الرسمية. يضاف الى ذلك انها قابلة للأندساس، لعدم وجود شروط وضوابط للعمل، وسط ظروف العداء العشائري والحزبي والمذهبي. مما سببت للناس مآسي وآلاماً كثيرة.

خامساً: ان جميع هذه التنظيمات الشعبية المسلحة بمختلف اسمائها، انما شكلت لمواجهة الجيش الرسمي. لسبب وآخر، ولهذا فان العداء ظل ويظل قائماً بين هذه التنظيمات وبين اجهزة الأمن والمخابرات وبينها وبين الجيش العراقي.

عبادة الشخصية

كان العراقيون يستمعون في اعياد التتويج والميلاد الملكي، من كل سنة، الى مجموعة من اطفال المدارس النموذجية ينشدون من دار الاذاعة، نشيد مليكنا مليكنا نفديك بالأرواح. والى قصيدة احمد شوقي الرائعة التي يؤديها على العود الموسيقار محمد عبد الوهاب.. يا شراعاً وراء دجلة يجري، وفيها اشادة بالملك فيصل الأول، ملك الشرق والفراتين.. أكرم بفيصل والبلاد.

ولم يخصص عبد الاله اغاني له طيلة ١٤ عاماً، اشغل فيها عرش العراق بالوصاية عن الملك فيصل الثاني.

كان السياسيون والمثقفون في العراق، يعتبرون من عيوب النظام الملكي التركيز على الملك، رغم انه رمز مصون غير مسؤول كما يقول الدستور. وفي ١٤ تموز واجه الشعب العراقي عدداً من قصائد المديح واناشيد التمجيد الشخصي بعبد الكريم قاسم، وهي سنة منقولة عن اغاني جمال عبد الناصر واذاعة القاهرة.

وقد زايد المزايدون على حب الزعيم فاستحدثوا له من الأوصاف والألقاب، ما لم يكن للعراقيين عهد به، فأسموه الزعيم الملهم.. والزعيم العبقري.. والمعلم

الأول والقائد الفذ، وابو الثورة، ورب تموز، والاسد الهصور.. والقائد الجسور.. والـزعيم الأوحد.. وهي تسميات واوصاف كان على عبد الكريم قاسم ان يرفضها، لأنها لا تضيف اليه مجداً. ومثله لا يحتاج الى تزكية من احلام وهبي ومائدة نزهت. فكأن عبد الكريم قاسم، لا يعرف حجم دوره السياسي في تاريخ العراق، فراح يستعين بالشعراء والمغنيات ليمنحنه الدور المطلوب. مما اثار عليه استياء فئات ليست قليلة. ان هذه الألقاب تظهر عادة في مراحل الخواء الفكري والحضاري كعرض من اعراض مرض الحضارة. ولهذا فقد لقب خلفاء وملوك وسلاطين العصور العباسية المتخلفة بمثلها، بينما اكتفى محمد بوصفه رسول الله، واكتفى عمر بن الخطاب باسمه، كما اكتفى الرشيد بالرشيد.

لقد كان عبد الكريم قاسم في بداية صعود حضاري وثوري، لا تأتلف معه تلك الألقاب والأماديح المتزلفة.

المسيرات الشعبية

ظاهرة جديدة على العراقيين الذين اعتادوا الخروج بالمظاهرات المعادية للسلطة والتعرض لرصاص الشرطة السيارة، ان يخرجوا في مظاهرة محمية بالسلطة، وتهتف للسلطة، كما كانت كلمة المسيرة جديدة في القاموس العراقي. وهي كما نعلم منسوخة عن مسيرة ماوتسي تونغ الكبرى اثناء تحرير الصين. وليس لمسيراتنا العراقية صلة نسب بمسيرة الصين، إلّا في جانب التشويه والنسخ والتزوير.

كانت مسيرات ماوتسي تونغ تضم الانصار المقاتلين في الجبال والادغال، والذين عاشوا على الحشائش، واستطاعوا ان يزحفوا الى المدن الكبرى ويواجهوا رجال النظام الاقطاعي المدججين بالسلاح.

اما مسيراتنا فكانت تضم الطلاب الهاربين من مدارسهم، والعمال الفارين من معاملهم، تحت ستار المشاركة الوطنية في المسيرات الشعبية. والهتاف

والتصفيق. مما ترك آثاراً سلبية على المستويات العلمية للطلاب، والانتاجية للعمال والفلاحين وموظفي المؤسسات الحكومية.

اي ان شيئا من معنى النضال لم يكن حاصلاً في المشاركة بهذه المسيرات الدعائية التي تلجأ اليها الاحزاب والحكومات لاستعراض عضلاتها والدلالة على جماهيريتها.

كانت المسيرات الشعبية تهتف.. موت موت تيتو.. موت موت عفلق. ولم يكن العراقيون على معرفة بعفلق، ولم يكن احد من انصاره قد رفع اسمه على شارع او كتبه على لافتة. فكان الاعلان عن اسمه وترديده في المسيرات الشعبية خدمة طيبة له، لا سيما وهو يقترن في الهتاف، باسم زعيم وثائر كبير كالرئيس اليوغوسلافي تيتو.

● الدعوة لالغاء المهر

لم يكن مألوفاً ولا مقبولاً في مجتمع شبه اقطاعي محافظ، خروج النساء في الليل، أو اختلاطهن بالرجال.

ولا ندري لماذا كان الأصرار شديداً على ذلك، وهو اجراء او خطوة تكفي وحدها لاستثارة حفائظ المجتمع ضد الحزب الشيوعي العراقي واعتبار حكومة عبد الكريم قاسم، متورطة في اعمال ومظاهر خارجة على الدين والأخلاق والاعراف الاجتماعية!.. فاذا اضيف الى ذلك ان اختلاط النساء بالرجال، يصاحبه اهازيج واغان وهتافات سياسية موجهة ضد أطراف أخرى، عرفنا حجم التشهير الذي سيلحق بكل من الحزب الشيوعي العراقي وعبد الكريم قاسم.

حدث في صيف عام ١٩٦٠ وكنت في بيت عمي السيد داود العلوي في الكرادة الشرقية، وفي المكان الذي اقيم عليه الجسر المعلق، وكان لعمي محل يطل على الشارع العام، ويقابله تماماً من الجهة الاخرى محل عمي الاخر السيد

محسن الخاص ببيع التبغ والسكاير، وكان عدد من الفتيات والفتيان يجتمعون في الحديقة الوسطية للشارع العام، مقابل السيدين، وهم يتناطحون بالأعجاز هاتفين.. ماكو مهربس هالشهر.. وينقسمون فريقين متقابلين وظهورهم على (السيدين) فيضربون على اعجازهم باليدين هاتفين.. ماكو مهربس هالشهرموتوا يا بعثية.

وكان السيد داود يستجير بالله من شر الشيطان الرجيم. اما السيد محسن وهو، ما زال يعتمر العمامة الخضراء، فقد كان التأثر عليه شديداً، وبالغاً لانه وهم يعرفون ذلك، كان يتقاضى اموالاً جيدة من عائداته في عقود القران التي يحررها، باعتباره المأذون الاول في المنطقة، فيجيبهم بصوت منخفض وقد تراءى له ان لا مهر بعد اليوم! بقوله.. ماكو مهر.. لكن أكو الله ينتقم منكم ومن الزعيم.

وبعد ١٤ رمضان كتبت اعلاناً في زاويتي اليومية بجريدة الجماهير حول تبرع السيد محسن العلوي لعقد قران زواج كل راغب من افراد الحرس القومي مجاناً ولوجه الله تعالى!

وفي اعقاب ١٨ تشرين استجوبه رجال أمن المنطقة الذين كانوا مستائين من ذلك الاعلان.

اظن ان المطالبة بالغاء المهرقد جلبت على الحزب الشيوعي العراقي، وعلى حكومة الثورة، من الخسائر اكثر مما جلبه المهر للرجال خلال القرون المديدة من خسائر ارادوا لها ان تتوقف.. فلم تتوقف.. بل سحبت العمل السياسي الى مستوى التناطح بالاعجاز.

● محكمة المهداوي

شكلت حكومة الثورة محكمة عسكرية خاصة لمحاكمة مفسدي نظام الحكم من رجال العهد الملكي. واسندت رئاستها الى العقيد فاضل عباس المهداوي، آمر حامية المسيب، ومن الضباط الاحرار، ويرتبط بعبدالكريم قاسم بصلة قرابة

شديدة. واسندت مهمة الادعاء العام للعقيد الركن ماجد محمد أمين، وهو ضابط لامع من اهالي الكوت، ومثقف ثقافة قانونية وأدبية جيدة.

أما أعضاء المحكمة، فهم المقدم عبد الهادي الراوي والمقدم عبد الفتاح الشالي والمقدم خضر الدوري.

كان العقيد المهداوي على اطلاع جيد بتاريخ الادب. وله المام بالشعر واللغة، ربما طغى على الماماته العسكرية وكان سريع البديهة، صريح العبارة، وقد ادار المحاكمات الاولى بجدارة ملحوظة قياساً الى المحاكم العسكرية الاخرى، وبوجهة نظر ثورية. وكان يخطط ـ وقد فعل ذلك ـ الى جعل محكمته مركزاً اعلامياً من مراكز الثورة، يساهم فيها الجمهور الى جانبه وباتفاق مع الحزب الشيوعي العراقي كما يبدو.

ان كتلة متفاهمة نشأت من العقيد فاضل عباس المهداوي، والعقيد ماجد امين، والعقيد وصفي طاهر.

كنا نرى المهداوي شخصياً في بيت حامد، وقد ارتدى احدى بيجامات الزعيم التي تتدلى اردانها واذيالها، فيضطجع على فراش فوق الارض والى جانبه وصفي طاهر، ويأخذهم حديث لا يشعرون بالحرج من وصوله الى المارة، الذين يفصلهم عنهم زجاج شفاف لشبابيك خشبية، فضلاً عن ساكني الدار.

كان المهداوي يعتدل بقامته، وقد تربع على الفراش مشيراً بيده الى وصفي طاهر.. اليوم ابطح توفيق السويدي .. اليوم اعلم هذا السقيع درس بالسياسة (ويقصد فاضل الجمالي).

وحين حانت محاكمة غازي الداغستاني، لاحظنا انه كان متهيباً منه، فما زالت الأعراف العسكرية مسيطرة عليه، والداغستاني عسكري محترم مرهوب الجانب.

وبسبب مثول اعداد من الشخصيات السياسية والعسكرية الكبيرة، امام العقيد المهداوي، فقد تكون حالة من الشعور بالثقة العالية قد اخذته، كتلك التي اخذت تعبث بعبد السلام عارف.

ظهر المهداوي وهو اكثر اندفاعاً لمعاقبة المتهمين من المدعي العام، خلافاً

لطبيعة عمله رئيساً للمحكمة يلتزم جانب الحياد. وكانت الماماته الادبية تدفعه فجأة الى مقاطعة المتهم، ببيت من الشعر او حكمة او طرفة، لكنها لم تكن بعيدة عن اللحظة الراهنة. ولو أنه كان يستطرد، ويفصل وقد يبتعد عن لحظته بعيداً.

كانت جلسات المحكمة تنقل على الهواء مباشرة، الى شاشة التلفزيون وموجات الاذاعة.

وباعتقادنا فان المهداوي اثبت في هذه النقطة بالذات جرأة متناهية، وثقة بالنفس، وتحملا للنتائج، فضلاً عن الجانب الديمقراطي الواضح الى حد الميوعة، ان يترك المايكرفون وعدسات الكاميرا، تحت تصرف متهم بقضية التآمر على البلد او افساد نظام الحكم!

ان النقل الحي لجلسات المحكمة خطوة عادلة، رغم انها جلبت الكثير من المتاعب لثورة ١٤ تموز ولعبد الكريم قاسم.

ان عائلة المتهم تتابع على الشاشة الحية، تفاصيل المحاكمة، فتتعرف على ما فعل وما لم يفعل من ذنوب.

وان النقل الحي يجعل المجتمع شاهداً، كما لا يترك فرصة للقاضي بالتنكيل والانتقام، لان المجتمع كان يشاركه في خطوات المحكمة نقطة نقطة.

ان الحاكم في النقل الحي لا ينفرد بالمتهم. وهو يشعر انه مراقب بكذا مليون عين وعقل وضمير. فتكون مسؤوليته مضاعفة على هذا القدر. كانت المحكمة العسكرية الخاصة ظاهرة مثيرة للأنتباه، ومثيرة للأنتقاد. فهي اول محكمة يقف فيها رؤساء الوزارات والوزراء والقادة العسكريون وكبار موظفي الدولة الملكية، في قفص الاتهام امام الجموع، وهم يسألون من الذين تسخروا هذه الجموع كانها أنعام؟

ولا يخفى اثر ذلك على عامة الناس. وانها كانت موضع انتقاد شديد في الاوساط الدولية، وفي هيئات حقوق الانسان، ومنظمات العفو الدولية، كما كانت عرضة لانتقادات شديدة في اجهزة الاعلام العربية، بعد مثول اعداد من العناصر القومية امامها. لا سيما في سماح رئيسها للجمهور بالمشاركة في التاثير على مجريات المحاكمة وما رافق ذلك من هتافات والقاء قصائد شعرية.

وفي اعتقادنا ان محكمة المهداوي على الرغم من هذه الانتقادات تبقى متميزة في عدد من الحالات لصالح المتهم.

ان محاكمات محاولي اغتيال عبد الكريم قاسم، تحولت الى اذاعة خاصة لنشر مبادىء وافكار المشتركين في المحالة. كما كان عرضهم لتفاصيل العملية جذاباً، بشكل استقطب عواطف الكثير من المشاهدين بغض النظر عن جانبها السياسي.

بعد عشرين عاماً تبدو هذه المحكمة، اول وآخر محكمة ثورية تمنح المتهم، حق الدفاع عن نفسه، بما شاء له من الوقت، وما شاء له من الكلام، الذي ينقل الى العالم بالشكل الذي تنقل فيه مطالعة الادعاء العام، ومناقشات رئيس المحكمة. ولعلها آخر محكمة سياسية في العراق وفي المنطقة تجري على هذا الشكل.

● شمس الدين عبدالله

من الضروري عدم اغفال ظاهرة، كان لها فعل يومي ملموس، في ساحة الصراع السياسي، بعد ثورة ١٤ تموز والمتمثلة في العقيد شمس الدين عبد الله رئيس المجلس العرفي، والذي كان في محكمته العرفية يقابل العقيد فاضل عباس المهداوي في محكمته العسكرية.

كان المهداوي ينظر في قضايا التآمر على النظام والمتهمون قوميون في الغالب.

وكان شمس الدين ينظر في قضايا المتهمين بنشاط حزبي او اجتماعي، مما يخل بالأمن العام. والمتهمون شيوعيون في الغالب. بل لعله تخصص في فترة ما بالنظر في قضايا خاصة بالشيوعيين، على أثر الانتقاد الذي وجهه عبد الكريم قاسم لهم في خطاب كنيسة الماريوسف بالكرادة يوم ١٩٥٩/٧/١٩ . اذ استطاع ان يضع اعداداً غفيرة من الشيوعيين والديمقراطيين في السجن بينما كان يغض

النظر عن النشاط القومي المتزايد.

وأوجد بذلك فرصة لتنفس معارضي عبد الكريم قاسم والحزب الشيوعي، لكي يتحركوا، مدعومين بغطاء عرفي يستخدمونه عند الحاجة، للتنكيل بخصومهم الشيوعيين. ولم يكن ذلك صعباً على شمس الدين عبد الله، الذي كان قد تعرض الى اعتداءات قامت بها ضده، جماعات محسوبة على الحزب الشيوعي، فضلاً عن انه يؤمن بالأتجاه القومي العربي ويعتقد ان الشيوعيين وعبد الكريم قاسم مسؤولون عما حدث ويحدث لحاملي الأفكار القومية ومستقبل العمل القومي في العراق.

اي ان شمس الدين عبدالله الذي يرأس محكمة عرفية خاصة بالدفاع عن النظام، كان هو نفسه من معارضي ذلك النظام، ان لم يكن من أشد معارضيه.

اعتمد العقيد شمس الدين عبد الله في اصدار قراراته على مبدأ قانوني، ينص على جواز اصدار قرار قضائي، في حالة وجود شاهدي اثبات، يقسمان بالقرآن الكريم على صحة اقوالهما، أمام هيئة المحكمة، بحضور المتهم!

وهذه عملية سهلة بوجود رجال الامن والشرطة، المعروفين بعدائهم التقليدي للشيوعيين الى جانب اي شخص من معارضي الحكم.

ولهذا فقد استغلت نقطتان لارسال الشيوعيين الى المحكمة العرفية واصدار القرار بالسجن عليهم. وشاع استعمالهما في حالة عدم وجود تهمة محددة.

اولاً: الادعاء بان احدهم مزق نسخة من القرآن الكريم.

ثانياً: الادعاء بان احدهم مزق صورة الزعيم، وتفوه بعبارات تمس كرامته الشخصية، ولما كان رئيس المحكمة العرفية، حريصاً على سلامة الزعيم وسلامة صوره من التلف، ولما كان من مُحبيه الذين يعز عليهم ان تمس شخصيته بكلام ولو عارض. فقد اصبح اصدار اقسى العقوبات بحق الفاعل مطلوباً ولم لا.. وهذان شاهدا الاثبات يقسمان بالقرآن الكريم على صحة اقوالهما!!

حدث في احتفالات ١٤ تموز عام ١٩٦١، ان اقام الشيوعيون في الكرادة الشرقية ـ محلة الزوية ـ قوساً للنصر، وبينما كان السيد مهدي السيد طالب. وهو عضو في الحزب الشيوعي، مشغولاً بالصاق صور الزعيم على القوس، هاجمه

احـدهم وانـزلـه من السلم بعـد ان سحب الصورة من يده ومزقها وهو يصرخ.. صورة الزعيم... يا ناس... مزقها سيد مهدي... فاقتيد السيد مهدي الى الامن العام، ومنها الى شمس الدين عبدالله ليقضي عليه بالسجن عاماً كاملاً. وحين انتهت محكوميته غادر الى المانيا الغربية حيث اقام هناك ولما يزل منذ ذلك التاريخ بعد اكتسابه الجنسية الالمانية.

امـا تمـزيق القـرآن في الحـادثـة المشهورة التي قيل انها وقعت في مظاهرة للحزب الشيوعي امام وزارة الدفاع والتي سجن على اثرها عدد من انصار الحزب بقرار المحكمة العرفية، فلا ندري كيف تم ذلك.ومن للشيوعيين بقرآن حتى يمزقوه، ولماذا يمزقونه امام وزارة الدفاع؟!

ان احداً لم يسأل ما دام ثلاثة شهود قد اقسموا انهم شاهدوا هؤلاء يمزقون القرآن! واغلب الظن انهم هم الشهود الذين مزقوا القرآن!.

ان شمس الـدين عبـد الله ظاهـرة فريدة في الحكومات والانظمة.. معارض كبير يقاضي انصار الحكومة، ويحكم على محبي زعيمها بالسجن!.

فكيف حصـل هذا؟ وهـل كان عبـد الكـريم قاسم متقصداً في اختياره رئيساً للمجلس العـرفي حسب نظـريـة التـوازن التي اعتمدها في حكمه؟! ام انه -وهو الصحيـح كمـا نظن- يعتقد بان جميع رجال الدولة وافراد الشعب يحبونه، وان احـداً لا يعـارضـه. وان شمس الـدين عبد الله كان ينظر في تجاوزات طفيفة يقع البعض فيها عن طريق الخطأ!!

● مونوا يا بعثية

مع ان بدايـات تشكيـل خلايـا لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، تمتـد منـذ بدايـة الخمسينـات، وانـه كان عضـواً في جبهة الأتحاد الوطني عام ١٩٥٧، والتي تشكلت لمعـارضـة حلف بغـداد وسياسة العهد الملكي بشكل عام، فان اسم البعث لم يكن شائعـاً في الاوسـاط العـامة، حتى في الأيام الاولى للثورة.

وكان فؤاد الركابي ممثل الحزب في حكومة ثورة ١٤ تموز الأولى.

لكن تطوراً كبيراً دخل فجأة بعد اسابيع من الثورة، جعل اسم البعثيين عنواناً للمعارضة القومية الشاملة والمنظمة ضد سياسة عبد الكريم قاسم. فقد انتهج الحزب ومنذ الأيام الأولى للثورة، سياسة موالية لعبد السلام عارف، والذي تبنى خلافاً، لرأي الحكومة المركزية، اصدار جريدة الجمهورية التي اشرف عليها الحزب، للتركيز على شخصية عبد السلام عارف، وتبني الأهداف القومية على انها هي كاملة، اهداف ثورة ١٤ تموز.

الذي يبدو ان عبد الكريم قاسم لم يضع حسابات او احتياطات او اهتمامات خاصة، بمواجهة حزب البعث، لعدم متابعته لطبيعة التنظيم السري المحكم لهذا الحزب، بالشكل الذي يدرك ابعاده وحجمه المستقبلي، الحزب الشيوعي العراقي، فلعل عبد الكريم قاسم فوجيء، كما فوجئت الاوساط العامة بهتافات الشارع يوم ٥ تشرين الاول عام ١٩٥٨، والمظاهرات تهدر. خمسة بالشهر ماتوا البعثية، وقد اثبت ربع القرن الماضي وتطور الأحداث، عكس ذلك تماماً، حتى يمكن للباحث ان يحدد المولد الحقيقي لحزب البعث كقوة قادمة في ذلك اليوم. وكأن الحزب الشيوعي كان يقول للناس (خمسة بالشهر بدأو البعثية).

كان اسم البعثية حديثاً على اغلب المسامع، وقد تقدم الحزب الشيوعي وكأنه جرير الناقة البعثية ودليل الركب، الذي يقود معارضي عبد الكريم قاسم الى ذلك الطريق. وقد تابع الحزب الشيوعي العراقي خدماته الجليلة للبعثيين يوماً بعد يوم، ومظاهرة بعد مظاهرة، وكأنه تحول الى مكتب اعلان ودعاية للحزب السري الذي كان يخطو اذ ذاك اولى خطواته ولكن بطريقة غير مباشرة.

وكما اخطأ نوري السعيد اخطأ الشيوعيون، وكما كان كل معارض للحكم الملكي شيوعياً، بفهم الشرطة السرية لنوري السعيد، أصبح كل معارض لحكومة عبد الكريم قاسم بعثياً، بقرار صادر عن اللافتات والأهازيج، التي لا يستطيع الحزب الشيوعي العراقي التملص من مسؤوليتها.

لقد استهدف عبد الكريم قاسم من ابعاد عبد السلام عارف ثم اعتقاله في

الخامس من تشرين الاول عام ١٩٥٨، ابعاد عبد السلام وتعطيل مبرراته الوحدوية، وانهاء وجوده الشخصي، رجلاً ثانياً في السلطة. اما الحزب الشيوعي فقد كان يفهم الحادثة بشكل (أفضل) من فهم رئيس الوزراء. انها فرصة لأبعاد البعث، فاذا هي فرصة البعث لتحقيق صيرورة وكينونة وديمومة استمرت في الساحة العراقية، وكانت سبباً في انهاء عبد الكريم قاسم وما تبع ذلك من مشكلات واجهت الشيوعيين العراقيين، وتواجههم حتى اليوم.

وإذ كان الحزب الشيوعي يحتفل بذكرى مرور عام على موت البعثية، اهتز الشعب العراقي لبيان الحاكم العسكري العام الذي أعلن يوم ٧ تشرين الاول عام ١٩٥٩ عن تعرض الزعيم عبد الكريم قاسم لمحاولة اغتيال في شارع الرشيد. وكان البعثيون -كما اكتشف فيما بعد- وراء هذه المحاولة. التي كانت من ابرز نقاط التحول لصالح حزب البعث، بسبب طبيعة العملية التعرضية، واهتزاز الكثير من الناس للشجاعة التي ابداها المقتحمون، وهو أمر يقع خارج المسألة السياسية. وبغض النظر عن صواب العملية أو خطأها. وقد ساعد النقل الحي والمباشر لجلسات محاكمة المتهمين بالمحاولة في المحكمة العسكرية الخاصة على تأكيد هذا الجانب. وتحول العقيد فاضل عباس المهداوي، من حيث لا يدري، الى داعية ودليل لحزب البعث. يضاف الى هذا وذاك موقف المتهمين في المحاولة ودفاعهم عن معتقداتهم وشرحهم الدراماتيكي لتفاصيل العملية، وكأنهم يعرضون فلماً سينمائياً مثيراً، فشهد الحزب اقبالاً كان اهم تحول في تاريخه على الاطلاق.

اما الحزب الشيوعي، فقد عاد الى شعاراته ذاتها، منذ اللحظة الاولى للمحاولة، اذ انطلقت المظاهرات تهتف.. زعيمنا سلامات موتو يا بعثية.

وكان الحزب الشيوعي العراقي، قد اسند حركة العقيد عبد الوهاب الشواف الى البعثيين ايضاً، وهو لا يدري او يدري، ان الشواف لو انفرد بالحكم لطارد البعثيين، بمثل ما طاردهم عبد السلام عارف من بعد.

المؤامرة

لم يكن العـراقيـون يستخدمون هذا المصطلح، لا في حياتهم اليومية ولا في ادبيـاتهم السيـاسيـة والحـزبيـة، ولا أظن ان مسامع الناس،التقطت عن اذاعة بغـداد وتلفـزيـونها فيما بعد، كلمة من هذا النوع طيلة الحكم الملكي الذي امتد منذ عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٥٨.

والمؤامرة تعبير، يعني وجود تنظيم او كتلة، تأتمر فيما بينها، للقيام بعمل كبير ضد الدولة، فاذا نجحت العملية سميت ثورة، او انقلاباً، واذا فشلت سميت مؤامرة، وكان من الممكن ان يسمى انقلاب بكر صدقي من قبل خصومه بعد فشله مؤامـرة. كمـا كان ممكنـاً اطـلاق اسم المتـآمـرين، على العقداء الاربعة واعضاء حكومتهم بعد فشل ثورة مايس / ١٩٤١. لكن الحكم الملكي لم يطلق لا على انقلاب بكر صدقي، ولا على ثورة مايس اسم المؤامرة.

ان نوري السعيد لم يكن ميالاً الى الجعجعة الاعلامية سواء كانت معه ام ضده. والحـديث في المـؤامرة ينتهي بجعل الحكومة، او النظام خاسراً، لانه يظهر امام العالم، بمظهر المستضعف الذي يأتمر عليه كل راغب. ولأن كلمة المؤامرة حين يتكـرر الحـديث عن وقـوعهـا، تعني اعتـرافاً فعلياً بوجود معارضة قوية للحكم تصـل الى مستـوى القيـام او الاعـداد للقيام بعمـل مسلح ضد الـدولة، ونوري السعيـد لا يريـد ذلك، فقد كان خطه السياسي والامني، خاضعاً لفكرة ظل يرددها الى ما قبل ثورة ١٤ تموز... (دار السيـد مأمـونـة) وهو مثل شعبي، يعني عدم اقتراب الخطـر او الشـر من دار السيد، اي الشريف المنتسب لسلالة النبي، ولم يكن السعيـد، يدعي انـه من هذه السـلالـة، لكنـه يعني ان العـراق انذاك، امام الآخرين كدار السيد في الحي الشعبي... محترمة، مصونة، مأمونة.

أن كلمـة المـؤامـرة والمتـآمـرين اصبحت بعـد ثورة ١٤ تمـوز شائعـة الاستعمال، شيوع الحبيب والحبيبة في اغاني الاذاعة.

لقد شغف الحـزب الشيـوعي العـراقي بها حباً، فجعلها من اهم المفردات

اللغويـة انتشـاراً واستعمـالاً في تلك المرحلة، وعنه اخذت الاحزاب والحكومات التالية هذه المفردة الحبيبة!.

كان الحـزب الشيـوعي يذكـر عبـد الكـريم قاسم بالاخطـار المحـدقـة به، والمعـارضـة تشتـد، والعمـل القـومي كاد ان يستقـل بالموصل والرمادي، او كان مستقلاً بهما بالفعل. وقد وفرت للزعيم وللحزب الشيوعي العراقي، حركة العقيد عبـد الـوهاب الشواف، فرصة للتأكيد على ان المؤامرة، كائن حي او غول يتربص بهم على الابـواب. وقـد يكـون رجـال الامن وهم يعتـاشـون على حديث المـؤامرة واعتقـال المتـآمرين، هم الذين يرفعون تقاريرهم للتدليل على قدرتهم السحرية في اكتشـاف المجهـول والغوص في اعماق الارض بحثاً عن المتآمرين. حتى اصبحت كلمـة المتـآمـر، تعني المعـارض، او غير المؤيد لحكومة عبد الكريم قاسم، ولو كان صياد سمك كحمزة الثوري او كاتب عرائض كالسيد العبودي.

لقـد اعلن عبـد الكـريم قاسم في نهـايـة عام /١٩٦٢ عن اكتشـاف عدد من المؤامرات، فادعى مؤيدوه، بانها بلغت تسعاً وثلاثين مؤامرة!

وبعـد مرور شهر حدثت الحـادثـة، ونجحت المـؤامـرة الاربعـون بتعبير الخصـوم والثـورة بتعبـير اصحـابها. وكانت الشعارات السياسية، تتحدث عن المـؤامرة، وكأنها اغنام ضالة في شوارع المدينة فتتصدى لها الجماهير صارخة. (مـاكـو مؤامـرة تصـير والحبال موجودة) .. والصحيح ان الحبال هي التي توجد المـؤامـرات. وما زالت بغداد ومنذ ربع قرن تعيش في حكايات السلطان والاربعين مؤامرة وما زالت دليلة تصب الزيت المغلي على رؤوس الاربعين متآمراً اناء الليل واطراف النهار.

● تزعيم الطلبة

لا نعتقد ان قطاعاً او فئة قدمت من الضحايا من شوارع النضال ضد الحكم الملكي، بمثل ما قدم الطلبة في جميع الانتفاضات الشعبية، حتى يمكن القول ان

المظاهرة العراقية المناضلة، كانت بنت المدرسة. لأسباب لسنا بصدد التفصيل بها. لكن الذي تنبغي الاشارة اليه، ان الأحزاب والحركات السياسية وجدت في هذا القطاع تربة صالحة لنموها، فأولته اهتماماً خاصاً. أما بعد ١٤ تموز فقد بدأ الصراع السياسي طلابياً، واخذ شكله العام يتكون في المدرسة، أو ينعكس على المدرسة، قادماً من الخلافات في مجلس الوزراء او في الصالونات السياسية، فكان الطلبة نار الثورة وحطبها.

ان مهمة اضيفت الى الطلبة لم تكن من مهماتهم الأخلاقية او العلمية او السياسية، فقد كلف عدد من الطلاب في كل مدرسة او معهد أو كلية، للقيام بمهمات صيانة الجمهورية ضمن مهمات الاتحاد العام للطلبة، فتحولت مراكز الطيبة والبراءة، الى مراكز شرطة وأمن وتحقيقات جنائية. حيث يطارد المعارض او المختلف سياسياً مع الخط العام آنذاك، سواء كان طالباً ام استاذاً، الأمر الذي جعل من الطالب المسؤول في المعهد او الكلية، (الرجل المسؤول) الذي يخطب وده المدير والعميد وبواب المدرسة. فكانت تلك بداية لظاهرة احتماعية، استمرت حتى بعد مرور ربع قرن على ظهورها أول مرة.

لقد استمعت شخصياً الى خطابات اعضاء الاتحاد الوطني في الكليات، ما بين عامي ١٩٧٦ ـ ١٩٨٠، وهي تبدأ بمخاطبة السيد رئيس الاتحاد الوطني، ثم يليه اسم العميد او رئيس الجامعة. ولاحظت الخروج على الأعراف التربوية والأخلاقية وكأنه المثل الصحيح للعمل السياسي بين الطلاب.

ولعل ثورة ١٤ تموز كانت المسؤولة عن عدم وضع ضوابط اخلاقية للعمل السياسي في قطاع الطلاب لكي لا يصير المتعلم استاذاً والأستاذ طالباً.

● الخيل في ساحة السياسة

اتخذ عبد الكريم قاسم في الأيام الاولى للثورة قراراً عاجلاً بالغاء سباق الخيل، وتصفية مراكزه في كافة انحاء العراق، كان هذا القرار خطيراً، لم يفكر عبد

الكريم قاسم بعواقبه، ذلك انه اخذ جانب حماية العائلة العراقية، وحماية اعداد من المتورطين في المقامرة الخاسرة دائماً، دون ان يضع ردود الفعل التالية ضده.

ان سباق الخيل في العراق، ليس كأمثاله في الدول العربية وانحاء العالم، مركزاً لمقامرة ومتعة اصحاب المال والصناعة وملتقى الفنانين والادباء. انه في العراق مختلف جداً، فهو يستقطب الباعة المتجولين والكسبة وصغار الموظفين الى جانب بعض الموسرين، وهم عدد قليل جداً قياساً الى الاغلبية الفقيرة. وقد ادت عمليات المقامرة في سباقات الخيل، الى فواجع انسانية، استباح فيها المدمنون على المقامرة، السطو على لحاف اطفالهم، او سرقة ما تيسر من ادوات المنزل، وبيعها مقابل الحصول عى تذكرة المقامرة.

وكان ذلك باعتقاد عبد الكريم قاسم كافياً لان يكون قراره الاخلاقي، موضع ارتياح عام، وهو الذي حصل. لكن الذي لم يكن على باله، ان يشكل المتضررون بالقرار وهم يشبهون المافيا الصغيرة، تجمعاً لهم في اسطبلات الخيل لمقارعة الحكومة، والعمل ضدها بامكانيات خاصة. لقد استثار اصحاب الخيل والاسطبلات والجوكية ومساعديهم من الشقاة والسيّاس وباعة التذاكر وحراس الساحة والمدمنين (المتضررين) بالقرار كل (نخوة) واستثمروا كل حالة، وحرضوا ضد حكومة عبد الكريم قاسم، رجالاتهم المنتفعين من السباق. وهم منتشرون في المراكز الحكومية وفي قيادات الجيش والشرطة، فدخل الى ساحة الصراع عنصر جديدة، وقد بذلت اسطبلات الخيل من الجهود السياسية لاسقاط حكومة عبد الكريم قاسم ما يفوق جهود بعض الأحزاب والحركات الصغيرة. لا بل وتحول جزء منهم او عدد منهم، الى تأسيس احزاب وحركات معارضة وقد احتلوا بعد مقتله مواقع قيادية في السلطة. وساهموا في وزارات العشرين سنة الماضية. بعد ان قرروا اعادة سباق الخيل وفتحوا ابواب المقامرة فيه للباعة المتجولين والكسبة ومستخدمي الحكومة. وأضافوا ساحة جديدة في محافظة البصرة.

لقد كسب عبد الكريم قاسم بقراره هذا، الاطفال والنساء وتأييد قطاع من التربويين والاخلاقيين. ووفر للعوائل الفقيرة المنكوبة بارباجها المدمنين، ثمن الخبز الذي كان يذهب الى بطون الخيل واصحابها في اسطبلات المنصور، لكنه

إثار حملة السكاكين والبنادق واموال المراهنات ضده الذين انتقموا منه فيما بعد شر انتقام.

الشقاة في العمل السياسي

لا يعرف اذا كان شقاة بغداد، هم من نمط العيارين الذي ظهروا في العصور العباسية المتأخرة، أم أنهم فئة مختلفة تماماً، تمارس طقوسها داخل اوكار على سطوح المنازل القديمة. في تدريب بعض الصبيان على اعمال النشل وأخذهم الى طريق الانحراف والشذوذ، كانت بغداد وما زالت، مقسمة الى مناطق نفوذ خاصة بكل شقي، فلا يقترب منه شقي آخر، الا اذا قتله وحل محله.

وكانت مراكز الشرطة في العهد الملكي، تؤجر للمعاونين، من القائمقام او المتصرف او مدير الشرطة. وهؤلاء يعتمدون على عوائد النشل التي يتقاسمونها في بعض الأحيان مع الشقاة، او مقابل رواتب ثابتة يقدمها كل شقي لمعاون الشرطة.

ظهر العديد من هؤلاء في ساحة العمل السياسي والحزبي بعد ثورة ١٤ تموز، واشتهرت اسماء عدد منهم في السياسة، كما اشتهرت في النشل والقتل والأنحراف.

الواقع انها ليست المرة الأولى التي يتصل فيها الشقاة بالسياسيين، فقد اعتمد وزراء ونواب في العهد الملكي على الشقاة لادارة شؤونهم الانتخابية، والتجارية، او لمواجهة خصومهم، لكنهم كانوا في الظل بعيداً عن السياسة، وهم يعملون بنظام ما يسمى في الدول الغربية (بريفيت كارد).

أما في ١٤ تموز، فقد اعتمدوا في العمل السياسي والحزبي بأسمائهم المعروفة، كخليل ابو الهوب وابن بهية السودة وحسين حبة وجبار كردي وعبود الأعور، و غيرهم في الأعظمية والكرخ والفضل وباب الشيخ.

ان اسباباً مختلفة وجهت الأحزاب والحركات السياسية للاستفادة من

الشقـاة في اعمالهم، فهم قوة تعرضية قادرة على القيام بعمليات ارهاب الخصوم، وبث الـذعـر فيهم. وقد ساعد على كسبهم في بعض الأحيان، ان الحاكم العسكري العام كان لا يتوانى عن حشر المعتقلين السياسيين في مواقف الشرطة، الى جانب هؤلاء الشقـاة واللصـوص والمتهمين بجرائم خلقية. ولا شك ان بعض الشقاة قد أعجب ببعض منـاضـلي الأحـزاب، كمـا اعجب رجـال الأحـزاب بشجـاعة هؤلاء واهميتهم، فانعقدت بينهم اواصر عمل مشترك بفائدة مشتركة.

وكـان كل طرف سيـاسي ينظر الى استخدام الشقي في الطرف الآخر كما ننظر الى العملية الآن باحتقار واشمئزاز. لكن كلاً من الأطراف كانت تتعامل مع شقاتها، على انهم فرسان وحملة مبادىء. وقد ساعدت الظروف صعود عدد من الشقاة الى مراكز السطوة الرسمية في الدولة.

وهنـاك فريق من الشقـاة رفض العمل في الأجهزة الحكومية، او في الأحزاب السيـاسيـة مفضـلاً حياته مع الغلمان وعوائدهم اليومية على الحياة السياسية ورواتب الوظيفة.

● القومية ممنوعة

جرت عمليات استبدال في الشارع للمسميات القومية، بعد فشل حركة عبد الوهاب الشواف، في رد فعل كاسح ضد الاتجاه القومي العربي.

ان النطق بكلمـات القـوميـة العـربية والوحدة العربية والتاريخ العربي والعروبة، يلحق بصاحبه ضرراً بالغاً قد يؤدي به الى السحل بالحبال.

ولما كانت الأناشيد القومية التي انجزها الفنانون العرب، ما زالت متداولة في الشـارع، فقـد سارع بعضهم، تمشيـاً مع رد الفعـل الى تحـويرها واستبدالها بمصطلحـات ومسميـات معـاكسة فاذا قال محمد قنديل وهو يغني للوحدة.. انا واقف فوق الأهرام.. وامامي بساتين الشام. طلع عليه آخر قائلاً.. انا واقف فوق الملويّة، وقدامي الصين الشعبية.

وكان يجري اسفاف فاضح، في اعادة كتابة المسميات القومية وتطويعها او تحويرها، الى الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية.فكأنهم وضعوا هذا البلد الصديق موضع البديل القومي الجاهز للجمهورية العربية المتحدة فأساءوا اليه ومنحوا المعسكر الغربي، فرصة جيدة للعمل المعاكس. ومن الطبيعي ان يحدث ذلك التصرف اثراً سلبياً واستفزازياً في الاوساط العربية والمحلية. لكن عمليات الاستبدال هذه من الممكن ان يجري التوسع فيها من قبل القوميين والوحدويين. وعندها سيكون الحزب الشيوعي العراقي، والدول الاشتراكية وحكومة عبد الكريم قاسم في مأزق كبير.

حدث في تلك الفترة، وكانت مجاميع من انصار الحكومة تحكم سيطرتها على الشارع، ان دخلنا مطعم تاجران في الباب الشرقي، بعد ان تسلحنا بوضع حمامات السلام على صدورنا، والتي كانت تباع على قارعة الطريق. حتى اذا أخذنا مكاننا على مائدة وسط الصالة، وحضر العامل لاستطلاع رغباتنا، بادره احدنا، وهو حميد رجب الحمداني.. جيب كبة موسكو.. فاعتدل العامل بدهشة.. متأسفين لا توجد مثل هذه الكبة. فأصطنع حميد الانفعال وعلا صوته.. لماذا يا ناس، كبة موسكو لا توجد؟! ماذا عندكم يا متآمرين. هنا حضر صاحب المطعم وقد تدلى كرشه الى الامام وهو يعتذر بخوف وانتهازية عن التقصير قائلاً.. هل تسمحون بوصف هذه الكبة حتى احضرها لكم غداً.. قال حميد.. هات قائمة المأكولات.. وأشار بأصبعه اليها قائلاً هل فهمتم؟ هذه التي كان اعداء الجمهورية والزعيم يسمونها كبة حلب. ولم يكن من صاحب المطعم الا ان يبادر على الفور لشطب كبة حلب وكتابة الاسم الجديد.

● المطالبة بالكويت

فاجا عبد الكريم قاسم، الرأي العام المحلي والعربي، باعلان المطالبة بالكويت، صيف عام ١٩٦١، واعتبارها قضاء ملحقاً بلواء البصرة، وقد اشار الى

عدد من الـوثـائق التي تدعم موقفـه، ووزع مندوبو العراق في الجامعة العربية والامم المتحـدة، نص مذكـرة بهـذا الصدد. وتلت ذلك تطورات لاحقة، قررت فيها الجـامعة العربيـة، وبدور مصري كبير، ارسال قوات عربية للمرابطة في الكويت. ولم يستخـدم اجـراء عسكـري معين، بل اكتفى عبد الكريم قاسم بحملة اعلامية وسياسية فقط.

وقـد قيـل انـه كلف احد قادة الفرق وهو السيد حميد حصونة بالزحف على الكـويت، لكنـه تلكأ عن ذلـك. ان هذا الكلام ينبغي ان لا يجد قبولاً. ذلك ان عبد الكـريم قاسم وهـو القـائـد العام للقوات المسلحة والعسكري الصحيح، لا يترك مصير قرار كهـذا الى احـد ضبـاطـه، بحيث يجمـد تنفيذ القرار، على ضوء موقف الضابط المأمور. وكأن قائداً آخر لا يوجد لتكليفه بهذه المهمة. او كأن عبد الكريم قاسم لا يفهم الامـور العسكـريـة وقواعدها، فيسكت مدحوراً امام عدم تنفيذ امر عسكري خطير على هذا المستوى.

الـواقـع انـه لم يكن راغباً بعمل عسكري، لمعرفته بنتائج الحروب وآثارها ولو كانت مع الكويت.

اغلب الظن ان هذه الاشـاعـة صدرت باجمـاع، من معـارضيـه ومـؤيديه. فالفريق الاول يبغي من ذلك وصفه بالعجز والضعف وعدم الحسم. بينما يحاول الفـريق الثـاني ان يرمي بمسـؤوليـة التلكؤ، في ذلك على احد الضباط. وقد اختير السيد حصونة بالذات لكونه طرفاً في النزاع السياسي، الذي انتهى بابعاد الحزب الشيوعي العراقي عن الساحة الرسمية.

يلاحـظ في قضيـة المطـالبة بالكويت، ان عبد الكريم قاسم اقر لآل الصباح بحق السيـادة عليهـا، ولكن باجـراء كان يبـدو عنـد معارضيه متهافتاً او مدعاة للنكتـة، حين اسنـد قائمقامية الكويت الى الشيخ عبدالله السالم الصباح، شيخ الكويت نفسه.

ان اثارة عائدية الكويت الى العراق، اغرت البسطاء بالذهب النفطي القادم من آبـارهـا، لكنهـا لم تغـرِ التيـار القـومي الـذي اعلن عن رفضه لسياسة الضم وتأييده لسياسة الوحدة او الاتحاد. ولم يبدِ المثقفون العراقيون حماساً واضحاً

لهذه القضية، على الرغم من ان بعض الاساتذة والمختصين في تاريخ المنطقة، وضعوا كتباً للاستدلال بها على صواب الموقف العراقي.

في مناقشة هذه القضية تتجاذب الباحث ثلاث حقائق:

اولاً: التاريخ كحقيقة.

ثانياً: السياسة كحقيقة ومثال.

ثالثاً: الواقع كحقيقة وحكم.

التاريخ كحقيقة:

استعان عبد الكريم قاسم على مطالبته بالكويت بأدلة تاريخية، تثبت انها كانت تابعة للادارة العثمانية ومقرها في البصرة، اي ان التاريخ كحقيقة يقف الى جانب عائدية الكويت للعراق. وهو اساس معتمد في القانون الدولي، فليس اقوى من التاريخ حقيقة يؤخذ بها في اقرار اوضاع المناطق المتنازع عليها. لكن التاريخ كحقيقة مبدأ لا يجوز استخدامه في اصدار قرار على قضية حدودية في المنطقة العربية. فالعرب ليسوا كالاوروبيين امم شتى على دول مختلفة يستعان بالتاريخ على تحديد هوية مساحة من الارض او مقاطعة على ضوئه، كأن تكون اللورين والالزاس تابعين لالمانيا او لفرنسا.

ان التاريخ كحقيقة قابل للاستخدام في القانون الدولي بين مجموع الحدود العربية مع جيرانها غير العرب. لكنه حين يستخدم لمعرفة عائدية جزء عن جزء، فانه يبدو باطلاً باقرار جميع الاطراف العربية المختلفة، والتي تتفق في مناهجها الدراسية وبرامجها الثقافية على ان العرب امة واحدة، وان الوطن العربي كلٌ لا يتجزأ. وان الاستعمار العالمي، هو الذي اوجد حالة التجزئة وقيام دول عربية، بدلاً من الدولة الواحدة. وبهذا المنطق يكون قيام الدولة في الكويت عمل مرفوض في المثل القومي، وفي التاريخ رفضاً مساوياً لبطلان قيام دولة في الاردن ودولة في العراق ودولة في البحرين.

ان الدليل التاريخي بعائدية الكويت يمكن ان يستخدم ذاته للدليل على

عائدية الاردن لفلسطين وعائدية فلسطين والاردن ولبنان لسورية وعائدية سورية باقاليمها الى مملكة الحجاز، يوم كان الامير فيصل يزحف بقواته الى الشام، لاقامة دولة العرب، لا دول سورية والعراق والاردن.

السياسة كحقيقة:

وحيث تم الاعتراف بهذه الدول، وبوضعها الراهن اعترافاً سياسياً، واعتبارها ضمن العمل بالممكن، على ان يظل التاريخ ضمن الطموح. وحيث اقيمت جامعة الدول العربية لتثبيت هذا الواقع السياسي، وهو مخالف للحقيقة التاريخية. وحيث ان العراق أقر ميثاق الجامعة العربية، وتصرف خلال الاربعين سنة التي سبقت مطالبته بالكويت على هذا الاساس، سواء في المسميات ام في كتابة التاريخ الاقليمي، وفي انجاز فن وأدب عراقيين، وتكوين شخصية عراقية مستقلة، فان الوضع الاستثنائي لقيام الحكومات العربية، اصبح حقيقة سياسية منفصلة عن الحق القومي السابق، وعن كل وضع سابق لاقرار الشكل العراقي بعد قيام دولته. وان ما يبقى خارجاً عن هذا الشكل، يبقى ملكاً للحقيقة التاريخية سواء على شكل اراضٍ او صحارٍ او جبال او مياه او اقاليم لم يبت بعائدتيها الاقليمية بعد. ثم ظهرت الى الوجود كحقيقة سياسية بالشكل الذي ظهرت فيه اقاليم الوطن العربي. اي ان المطالبة بالكويت تصبح فعلاً خارج الحق الاقليمي وخارج مبدأ السياسة كحق معترف به.

الواقع كحقيقة:

لم يكن ممكناً الدفاع عن حق الكويتيين في اقامة دولة لهم، اسوة بالاردنيين والعراقيين وغيرهم في النقطة التي نحن بصددها قبل ايامنا هذه، وقد مرَّ اكثر من عشرين عاماً على قيام دولة الكويت مما اضاف مبرراً قد يقوي حقهم في ذلك ويدعمه، وقد يضعف الحجة على ضوء النتائج النهائية وشروط بناء الدولة التي

توصل اليها الكويتيون خلال هذه الفترة. كان يكونون اهلاً للحكم او لا يكونون اهلاً لادارة شؤون دولة ومجتمع مهما كان صغيراً.

الملاحظ ان الكويتيين انجزوا لهم الدستور الدائم. واقروا بانتخاب برلمان. ونهجوا سياسة خارجية لا تكسب لهم نفرة العالم، كما تعاملوا في الداخل بطريقة جعلت الكويتي سيداً ان لم يكن اميراً على سواه من غير الكويتيين. فحفظت الدولة كرامة مواطنيها، ولم تلجا الى العنف او الانتقام، في مواجهة الاشكالات الاجتماعية والسياسية وعلى الرغم من السياسة التي تتبعها في حركة انتقال العرب اليها، اصبحت مكاناً مطلوباً للعراقيين والفلسطينيين والمصريين وسواهم. وانجزت مستوى حضارياً فرض وجوده في الصحراء القاحلة، مع توزيع ذكي للدخل القومي. وقدرة على الخروج بنتائج متجانسة في عملية البناء التي تساهم فيها شعوب تنتمي الى ٨٢ جنسية، ولم يتعرضوا لنكسات دموية، ولم يفقدوا توازنهم السياسي. وهو واقع ما كان سيتحقق لهم لو نجحت محاولة عبد الكريم قاسم بضم الكويت الى العراق، مما يضيف الى الكويتيين عنصراً جديداً يقف الى جانبهم في اي وقت تثار فيه المشكلة من جديد.

● حامد قاسم

ماذا يحدث حين يتحول فجأة وخلال ساعات، بيت بسيط كبيت حامد قاسم، الى ما يمكن ان يسمى بيت الثورة، او بيت رئيس الوزراء؟ وهي حالة نادرة، ولو انها اصبحت فيما بعد اعتيادية في الحياة السياسية. كنت اراقب الحالة النفسية والمالية والاجتماعية لعائلة حامد قاسم، عن كثب وباهتمام غير اعتيادي، لسببين:

الاول يتعلق بنشاطنا المعادي لسياسة عبد الكريم قاسم بغية الوقوع على ما يفيد في عمليات التشهير السياسي، عن طريق التقاط مخالفات او ظهور حالات من الانتعاش المادي لهذه العائلة، فتتحول المعلومات الى اخبار واشاعات

يتداولها معارضو الحكم.

والثاني يتعلق بمشروع تسجيل احداث الثورة وتطوراتها التي عايشناها معاينة وجهاً لوجه.

وكنت أتساءل ماذا ستكون عليه حال بيت حامد؟ وكيف سيتصرف عبد الكريم قاسم، الزعيم، والقائد، ورئيس الوزراء؟

الهوايات التي يصطنعها رجال الحكم لأنفسهم. انظمة الطعام الخاصة. الطقوس اليومية. غرفة الدرج. سريره الحديدي، مشجب الملابس على الحائط. التعبير بالأشارة، ودرجة الصوت عند الحديث. وطريقة الاتكاء على الكرسي. وهل سيدخن الزعيم؟ وكيف تكون الزاوية المفضلة لعدسة العين؟

عدنان هل يظل عاطلاً؟ واذا اشتغل فماذا ستكون وظيفته؟ هل يعين قنصلاً او سفيراً او سكرتيراً على الاقل؟!

وماجد هل يظل صاحبنا الفكه؟ الذي يدحرج النكتة الكبيرة، ويحشو البصل في لفَّة الفشافيش. وحسين الميّال الى الجدية، وشبيه الوجه بعمه هل ستصبح جديته سلطانية؟

وكيف ستتصرف أم عدنان؟ هل ستعمل بالأتيكيت؟ وتقيم الحفلات الساهرة التي تقيمها عوائل رؤساء الوزارات. واين ستجلس المدعوات؟.. لا بد انها ستستعين بالاثاث الحديث.

كانت الاسابيع الاولى غير كافية، والشهور التالية غير واضحة، والسنة الاولى مرت بهدوء، وكانت السنة الثانية تمر وكأن شيئاً لم يحدث. الدار نفسها المستأجرة، قائمة ومستمرة. فلم تطلَ شبابيكها بالدهان ولا جدرانها. وطين الشتاء امام الدار نفسه، فلم يزفت الرصيف الترابي، ولم يقف حارس او جندي او شرطي على الباب، مع أن فترة اقامة عبد الكريم فيها قد كثرت وطالت بعد انتقاله من جلولاء الى وزارة الدفاع. ولو كانت لعائلة حامد، وعي آثاري وادراك، لقيمة التاريخ، لاحتفظت بسريره الحديدي. وخزانة كتبه ومشجب ملابسه وجعبة عصيِّه، هي كل ممتلكاته المنقولة وغير المنقولة التي صدر قرار بمصادرتها يوم ٨ شباط / ١٩٦٣. وقد ظل عدنان عاطلاً عن الوظيفة الرسمية، ولم يرتبط بعمل

خاص الا بعد ثلاث سنوات على مرور الثورة حين استأجر كراجاً لغسل وتشحيم السيارات.

ولم تقف سيارة على الباب قبل عام ١٩٦١ وهي من نوع شوفرليت زرقاء اللون. وبعد هذا التاريخ تم انتقال حامد قاسم الى بيت مطل على نهر دجلة، فوجدنا في ذلك فرصة تاريخية، لكي نتحدث عن اخبار ثرائه، وننسج الأساطير حول ترف عائلته، لكننا حين كنا نقرأ النشرات السرية نجد معلوماتنا متواضعة.

ان تغييراً لا بد ان يكون قد حصل في حياة حامد قاسم التجارية، وهو الموضوع الذي انشغلت الساحة السياسية بالحديث عنه. فهو اي حامد قاسم ابن السوق، والسوق لا تتحمل المبادىء والمثل كثيراً. ولعل القطاع التجاري ياتي قبل (الثقافة) في شدة حساسيته الانتهازية لاقتناص الفرص الذهبية، والتجارة كما يقولون فرصة والتجار من اصحاب الجنائب النهرية كاولاد حنا الشيخ واولاد زيونة وسواهم، اعتادوا الالتقاء بحامد منذ سنوات طويلة، صباح كل يوم في سوق مناحيم دانيال، على ضفة النهر في شارع المستنصر. ولا بد انهم وسواهم وجدوا فيه طريقاً لمضاعفة النشاط التجاري، فكانوا يتركون له مقاعدهم ويظهرون ليونة وطيبة لم تكن معروفة في احاديثهم وقد يشتمونه بعد مغادرته المكان. وفي مثل هذا الجو لا نستبعد ما سيصيب حامد، وهو رجل أمي بسيط، من شعور بالسلطنة، ومحاولات لاقتناص الفرص التجارية السهلة.

لكن الدولة لم تكن طرفاً في هذه العمليات، فلم يكن هناك قطاع عام او اشتراكي وسيادة كاملة على حركة السوق والتجارتين الداخلية والخارجية، كما حدث بعدئذ، حين احكمت الدولة سيطرتها على منافذ الاستيراد والتصدير والتوزيع، وتركت (منافذ عمل) خاصة، يستطيع فيها حامل المغزل والعباءة ان يكون واحداً من اكبر حاملي أسهم بنك ويست منستر. ان ذلك لم يحصل في حكومة عبد الكريم قاسم، لان التجارة حرة ومفتوحة مما يحول دون ايجاد احتكارات وصفقات تدبر ضد المستهلك.

سئل عبد الكريم قاسم عن اخيه حامد قاسم فقال.. تاجر لم يخرج على الاعراف التجارية. وهذا الكلام صحيح جداً، فالاعراف التجارية السائدة، هي

التي ساعدته على العمل.

لقد اعتقل حامد قاسم بعد مقتل اخيه مباشرة. واحيل الى لجنة تحقيق - غير محايدة حتماً - وهي محملة بقناعات سابقة ومواقف سياسية ليست لصالح هذا المتهم فخرجت بالنتائج التالية:

١ - لم تكشف التحقيقات عن وجود تجاوزات مالية او اثراء غير مشروع.

٢ - لم يعقد صفقات للحكومة.

٣ - لم يعقد صفقات خارجية مع اية دولة عربية او اجنبية.

٤ - لم يغلف نشاطه التجاري بغلاف العمل السياسي، ولم يثبت تعاطيه للسياسة.

٥ - لم تثبت له اية صلة بأي مسؤول حكومي طيلة عهد عبد الكريم قاسم.

٦ - لم يتدخل في قضية ما مقابل رشوة او صفقة تجارية.

٧ - ليست له سوى دار سكن واحدة، ويستأجر لزوجته الثانية داراً في جانب الرصافة.

ولهذا تم اطلاق سراحه دون الحكم عليه بأية عقوبة.

● الفلاحون في المدن

كان شيوخ الاقطاع في العراق، يتمتعون بشيء من الحكم الذاتي في ادارة شؤون عبيدهم ومواطنيهم، داخل الحدود الرسمية لمقاطعة كل واحد منهم.. وهم بهذا يختلفون عن رجال الاقطاع المصريين والسوريين والاتراك والايرانيين الذين يمتلكون الأرض لتشغيل اعداد من الفلاحين، دون ان تكون ثمة صلة بين الاقطاعي وفلاحيه، غير زراعة الارض، اما في الاقطاع العراقي، فالأمر مختلف جداً اذ تقوم شرعية رجال الاقطاع على نظام المشيخة القبائلية. فهم والفلاحون من عشيرة واحدة، او فخذ من عشيرة. ورئيس العشيرة هو الشيخ مالك الأرض. وله حق ادارتهم اجتماعياً وقضائياً وزراعياً. وقد اعترفت الدولة المركزية بهذا الحق،

واصدرت قانون دعاوى العشائر، كما تركت للشيخ حرية العمل داخل اقطاعيته، مكتفية بالعوائد الزراعية الجيدة، التي كانت تغطي حاجات السوق، ويصدر الفائض الى اسواق العالم.

لقد جاءت الثورة لتقول لهؤلاء الفلاحين انكم شعب اكبر من العشيرة، وان رئيسكم عبد الكريم وليس الشيخ.

ولم يكن سهلاً على الثورة ان تجتذب الفلاحين، بعيداً عن مراكز الاستقطاب العشائري دون مقابل. ولم يكن ذلك بعيداً عن تصورات عبد الكريم قاسم، الذي اوقد في الفلاحين نوعين من المشاعر..

المشاعر الخاصة التي تبحث عن ملكية الارض. والمشاعر العامة التي لمحت الثورة بها لهم، حول مشاركتهم في ادارة شؤون الدولة، باعتبارهم الاغلبية الكبرى والفئة المسحوقة، عن طريق المشاركة في التنظيمات المهنية والاجتماعية، وجعلهم بالتالي - وهو المطلوب - المادة الرئيسية - للشارع العراقي.

وكان عبد الكريم قاسم يحتاج الفلاحين لشارعه، والحزب الشيوعي العراقي لا يرى في نفسه حزباً دون عمال وفلاحين.

وكان الفلاحون يذكرون لعبد الكريم قاسم، انه اعطاهم الأرض، وفتح لهم الطريق الى المدينة، فمن سيكون الشيخ؟ ومن تكون العشيرة؟ لقد لفهم النسيان.

وكانت تلك فضيلة عبد الكريم قاسم الكبرى، وخطيئته الكبرى.. فقد سهل للفلاحين طريق الحرية بعيداً عن الشيوخ، وفتح لهم شوارع المدن الكبرى، ولم يقرع لهم اجراس العودة . لتنشأ مشكلة هجرة الفلاحين، وترك الأرض نهباً للأملاح. وكانت تلك أهم مكاسب الاقطاعيين، الذين ظلوا يلوحون، بان ابتعادهم عن الأرض، حول العراق من مصدرٍ كبير للحبوب والمنتوجات الزراعية، الى مستورد للرغيف، من كندا، والطماطة من الاردن.

وقد تحول الفلاحون في حكومات العشرين سنة، الى سواق تكسي وباعة متجولين وبوابين وفراشين، والى شيوخ، من نمط ثوري، يسندهم الاتحاد العام، والمحافظ، والقائمام، وقروض المصرف الزراعي، ومكائن الجمعيات الفلاحية. و ليس عليهم الا الحضور في المظاهرات الوطنية الكبرى، التي تقام بعد تنصيب

رئيس او اعدام آخر. والرقص في المناسبات الوطنية الكبرى وباعياد الشجرة التي ساهموا في اغتيالها.

العمل الإسلامي

مع ان العراق الحديث ظهر في اعقاب ثورة قادها علماء الدين ضد الاحتلال البريطاني عام ١٩٢٠، وهي ثاني ثورة بعد ثورة النجف عام ١٩١٨ ضد الوجود البريطاني والتي أدت الى هجوم الثوار المسلمين على دائرة الحاكم العسكري الكابتن مارشال وقتله مع جنوده. فان تنظيماً اسلامياً لم يشكل بعد اعلان العراق مملكة في آب / ١٩٢١.

وكانت فرصة تشكيل حزب او حركة اسلامية ذات طابع سياسي ستستقطب الجماهير وتكتسح سواها من التنظيمات بسبب وجود قادة روحيين وزعماء سياسيين وشعب كان مستعداً للاستبسال من اجل الدفاع عن دينه ووطنه.

الا أن علماء الدين لم يخطوا هذه الخطوة فتركت الساحة للأحزاب العلمانية العلنية والسرية. لكي تتوزع النشاط السياسي للشعب العراقي.

من جانب آخر ظهرت تنظيمات الأخوان المسلمين في العراق اواخر الأربعينات بطابع اجتماعي اكثر منه سياسي. وبصورة مختلفة عن صورة الاخوان المسلمين ونشاطهم في مصر قبل ثورة ٢٣ تموز / ١٩٥٢.

ففي الشهور الاخيرة من حياة النظام الملكي كانت اذاعة بغداد التي قاطعها الوطنيون العراقيون تبدأ نشاطها اليومي بحديث على مائدة القرآن للأستاذ محمد محمود الصواف الذي يوصف بانه مسؤول تنظيمات الاخوان المسلمين في العراق. وكانت عامة الناس تنظر باستياء الى هذه المشاركة الاذاعية، الأمر الذي دفع بالأحزاب الوطنية لأطلاق تسمية أخرى على هذا الحديث.

وانقطع الحديث بعد ثورة ١٤ تموز مباشرة. اما علماء الدين في النجف وكربلاء والحلة والكاظمية. فهم وان لم يقيموا تنظيمات سياسية فقد كانوا على

صلة بالأحداث، وقد برزت اسماء كان لها وجود سياسي كبير في الساحة في الفترة التي اعقبت ثورة العشرين كالأمام ابو الحسن الأصفهاني، والامام محمد مهدي الخالصي في الكاظمية والأمام محمد حسين كاشف الغطاء الذي عرف ليس في العراق وانما في العالم العربي بمواقفه ضد الوجود الاستعماري ونشاطاته في المنطقة.

وبين هؤلاء وهؤلاء يوجد (علماء الحفيز) وهو اسم محرف عن كلمة الأوفيس اي الدائرة او المكتب اشارة الى صلتهم بالسلطة.

ابدى علماء الحفيز خدمات كثيرة للسلطة حتى في عهد الاحتلال البريطاني. وما زال النجفيون يذكرون الأحتفال التكريمي الذي اقامه الكليدار وجماعته من علماء الحفيز للحاكم البريطاني بلفور مساء يوم ٣٠ أيار عام ١٩١٨ بعد ان انتهى من اعدام (١١) ثائراً باسلاً اشتركوا في ثورة النجف! وجرى اعدامهم علنياً في احدى ساحات الكوفة صباح ذلك اليوم. وما زال علماء الحفيز يختلفون بالحكام بعد كل اعدام. يقابل ذلك ائمة الجوامع، وهم مستخدمون لدى ادارة الأوقاف الحكومية.

بارك علماء النجف ثورة ١٤ تموز مباركة ليست مطلقة وانما مشروطة بما سينجزه القيمون عليها من خير وصلاح للأمة. حتى اذا تدهورت الأوضاع السياسية والاجتماعية، سارع العلماء الى التنبيه على ضرورة حماية ارواح المسلمين وممتلكاتهم وحفظ اعراضهم.

وباستمرار ظهور استفزازات في الشارع السياسي ضد الأفكار الدينية واطاراتها الأخلاقية، تحول موقف المراجع الدينية الى التعبير بلغة أشد والتحذير من تفاقم الأوضاع. ويذكر ان المرجع الديني آية الله السيد محسن الحكيم كان قد اصدر فتوى تتعلق بالتعامل مع القصاب اذا كان شيوعياً، فكانت تلك الفتوى انعطافاً واضحاً في مجرى الاحداث، اذ اخذت المعارضة القومية تتبنى الفتوى. وتعلق صور السيد الحكيم على واجهات المحلات والشوارع لا ايماناً والتزاماً بموقفه الشرعي، وانما للاختفاء وراءه الى اجل مسمى!

حتى اذا اصدر عبد الكريم قاسم قانون الاحوال الشخصية واقر فيه

مساواة المرأة بالرجل لم يعد ثمة مجال للسكوت عليه. وقد خالف نصاً صريحاً من نصـوص القـرآن الكـريم. وهو نص لم يختلف عليه الفقهاء، بل اجمعوا في جميع تفسيراتهم وعلى اختلاف مذاهبهم على الأخذ به، فللرجل مثل حظ الأنثيين.

ان هذا القانون الذي اندفع نحوه الحزب الشيوعي العراقي والداعون الى قضية المرأة لم يكن تشريعه مطلباً ملحاً، لا باطار المرحلة القائمة، ولا باطار الضرورة.

ان المشـرع افتـرض بان المشكلة الراهنة للمرأة العراقية انما اقتصرت على هدف مسـاواتهـا مع الـرجل بالارث، وكأن نساء العراق لم تعد لهن مشكلة سوى هذه، وكأن المختلفـات على (ارث الابـاء) كنَّ من العـدد بحيث اصبـح لزامـاً على الحكومة اصدار تشريع لمساواتهن مع الرجل.

ان المزايدة على حساب المرحلة، واستفزاز القيم الاسلامية او الدينية بشكل عام لا يدل على حكمـة. وان تحـدي النصوص القرآنية بنص يصدره رئيس وزراء او حاكم، انما يعني استهانة كاملة بالدستور الذي تنص مادته الثانية او الاولى.. على ان الاسلام دين الدولة!!

لقـد اعقب اصـدار هذا القـانـون ردود فعـل قوية في الأوساط الدينية على مختلف المـذاهب، فأعلن علمـاء الـدين عن بطـلانـه، ولم يلتزم به قضاة المحاكم الشرعية بل لم تلتزم به صاحبات الارث اللواتي رفضن اخذ الحصص المتساوية على حساب الخروج على نصوص الشريعة الاسلامية.

وبهذا فان قانـون الأحوال الشخصية ولد ميتاً لكنه خلق فجوة كبيرة بين السلطـة والهيئـات الاسـلامية. فضلاً عما كانت تعانيه السلطة من حرج بسبب هتافات الشارع واساليب العمل السياسي آنذاك.

اتسمت تلك الفترة بلقاءات مشتركة لرجال الدين، اذ جرى الاحتفال بالمولد النبـوي في جامـع الامـام الأعظم بحضـور مجموعة كبيرة من رجال الدين وأهالي الكـاظميـة، وظهـرت شعـارات على الجـدران وعـلى اللافتات مستمدة من الآيات الكـريمـة أو الأحـاديث الشـريفة. وكان القوميون يساهمون في نشرها الى جانب الاسـلاميـين، لاسيمـا في الأعظمية. حيث نشط الاخوان المسلمون بشكل واضح

وبـرز منهم شعـراء واسـاتـذة ابلوا بلاء مشهوداً في مواجهة حكومة عبد الكريم قاسم، كوليد الاعظمي الذي اشتهرت قصائده.

ومأمـون كشمـولـة وخطـابـاته العلنية ونشاطه الكبير في عهد عبد الكريم قاسم. والـذي اعـدم في كانـون الأول عام ١٩٧٠ في قصر النهاية. وكنت شخصياً احضـر جانباً من نشاطات الاخوان في نادي النعمان الرياضي بالأعظمية وما زلت اذكـر حديث السيـد محمد الآلوسي الذي قال فيه بعد اسبوعين من قيام ثورة ١٤ تمـوز انهـا انقـلاب عسكري سيورث عداً من الانقلابات.

وكـان عدد من المثقفين ومن اعضاء حركة الاخوان المسلمين قد اسسوا الحزب الاسلامي برئاسة السيد عبد الرزاق نعمان.

وبـإعتقـادنـا فان تلك المـرحلة كانت البـدايـة الحقيقية لظهور تنظيمات اسلامية على مستوى ثوري تستهدف تحقيق النظرية الاسلامية وقيام حكم اسلامي.

ان أدبيات الأحزاب الاسلامية الآن تشير الى هذه الحقيقة.

وبشكـل عام فان الحـركـة الاسلامية اخذت تنمو وتتسع في العشرين سنة الماضية لتحقق وجوداً اساسياً في العمل السياسي على الساحة العراقية.

● القاسميون

لم يحـاول عبـد الكريم قاسم تشكيل حزب سياسي على كثرة محبيه او كثرة المتبرعين للدخول في احزاب الحكومة. وانما اطلق اسم القاسميين، على مجموعة من الوزراء والضباط ورجال الحكومة، من المستقلين او الحزبيين السابقين الذين تحـولـوا الى جانب رئيس الـوزراء بعـد خلافه او خلاف الاحزاب والشخصيات المستقلة معـه. ومـا بين سنتي ١٩٦١ واوائـل ١٩٦٣، أصبـح واضحـاً ظهـور

السيادة الكاملة للقاسميين على اجهزة الحكومة والجيش والصحافة.

لم يكن للقاسميين نظرية، او تنظيم ولا موقف ثابت، شأن الحكوميين في كل زمان..

انهم مع قاسم ما دام رئيساً للوزراء، وما دام رئيساً للحكومة وما دامت حقوقهم محمية ومحفوظة في علب الدولة لا سيما ان ذلك لا يكلفهم مشقة. فاذا حوصروا في مأزق استنجدوا برجال الامن والشرطة لانهم رجال حكومة، واذا شغر منصب قفزوا اليه من قيادات الجيش او مكاتب اعمالهم. انهم كانوا يزايدون على محبة الزعيم ويخشون عليه من البعثيين ثم الشيوعيين ثم من جماعة الجادرجي!، ولهذا فقد حلوا محل الجميع في مجلس الوزراء واجهزة الدولة، وفي الاتحادات الفلاحية والعمالية، كما سيطروا تماماً في تلك الفترة على الاعلام والصحافة لكونه اقدر القطاعات على استيعاب الطموحات الانتهازية والوصولية.

وفي تسمية القاسميين ينبغي فرز هؤلاء عن ذلك التيار الشعبي الذي احب عبد الكريم قاسم حباً خالصاً، لم تؤثر به، ولم تزعزعه تقلبات الاحداث، بل حملوا قاسم في قلوبهم وعقولهم، بعد ان تحولوا الى احزاب سياسية اخرى!.

ولم تستطع فكرة الموت ان تجد لها مكاناً في نفوسهم، وهم يرون صورته على التلفزيون، مضرجاً بدمائه وقد انحنى رأسه على اليسار.

وليس لنا ان نطلق على هذا التيار، او على هذا الشعب اسم القاسميين، لانهم شعب باغلبيته وفقرائه وجنوده وفلاحيه، وبمن فيه من امهات، رأين عبد الكريم قاسم في صورة الابن البار. ان العراقيين من غير حملة الافكار القومية، كانوا مع قاسم دون تردد. فلم يكن القاسميون انصاراً لعبد الكريم قاسم، وانما هم من الموالين له. والفرق بين النصير، والموالي واضح جداً، ولهذا فان مقارنة سريعة بين القاسميين والشيوعيين في اللحظات الاخيرة لقاسم تكشف عما يفعله الانصار وما يحملون وما يتحملون وما يتصرف به الموالون في الساعات الصعبة.

لقد انفرط القاسميون عن قاسم في ساعة الحاجة اليهم، فلم يتحرك حاكم

عسكري عام، او وزير، او قائد فرقة، او قائد جريدة، او قائد فلاحين، لقد هربوا او كمنوا في غرف نومهم، وادعوا انه يوم جمعة! وهو عطلة رسمية. وفي العطلة يتعطل كل شيء .. الشرف ... والمسؤولية... والالتزام وحتى الدفاع عن النفس.

بينما نزل الشيوعيون الى الشارع، بهراواتهم ومسدساتهم، واحياناً بالاغاني والاناشيد انتصاراً لقاسم. وبيد كل واحد منهم نسخة من بيان الحزب الصادر يوم ٨ شباط... ان مكتسبات الثورة امام خطر مؤكد ايها الرفاق... لم يدافع عن قاسم وزراؤه... بل سجناؤه... ولم يمت من اجله قادة الفرق وقادة الوزارة.. بل عمال الشيخ عمر.. لقد استسلم القادة العسكريون الكبار، لبنادق صدئة كانت مع الثوار.. بينما تصدى حي الاكراد لدبابات الجيش بعد ان استولى الثوار على المعسكرات بقضبان الحديد، فقتل دفاعاً عن عبد الكريم قاسم من حي الاكراد، اكثر ممن قتل من رجال الحكومة والمحافظين والوزراء ورجال الشرطة والامن.

وتحولت سطوح الناس البسطاء الذين عاش عبد الكريم قاسم في وجدانهم، الى ساحات قتال بينما استسلمت فيالق العسكر في طرفه عين.

لم يدافع القاسميون من رجال الحكومة عن قاسم، لشعورهم انه سيفقد الحكومة، ودافع الآخرون عنه لشعورهم انه سيفقد الثورة.

ان حكومة ١٤ رمضان تدرك ذلك جيداً. وهي تعرف المقاتل كما تعرف الوصولي والانتهازي، ولهذا فقد خططت لاغتيال جلال الاوقاتي قائد القوة الجوية، وترك الحاكم العسكري العام حياً، وقررت اعدام عبد الجبار وهبي (أبو سعيد)، كاتب العمود اللامع في جريدة اتحاد الشعب، يوم كان بعيداً عن حكومة قاسم. واطلقت سراح عبد الرزاق البارح، الكاتب القاسمي الذي ارتبط اسمه بمقالات نارية كتبها ضد البعثيين والشيوعيين. واعدم نقيب المعلمين الذي لا يجيد استعمال السلاح، على سطح منزله بعد ان حوَّل سطح المنزل الى ساحة قتال، بينما اطلق سراح قائد الفرقة الاولى المعروف بموالاته لقاسم بكل نجومه وسيوفه وتيجانه!.

ان ما حدث في يوم ١٤ رمضان، يكشف احد القوانين الانسانية والاخلاقية في العمل السياسي، كان تجربة كبرى تمنح الحكام فرصة الاعتماد على السجناء لا على الوزراء. وعلى سطوح المنازل، لا على سطوح الدبابات. لكن اغلب الحكام ضيقوا الافق، لا تمتد قوة الابصار عندهم، الى اكثر من اللوحة الوزارية، وتحية الشرطي، وعبارة «نعم سيدي».

الحق من خاصرة الباطل

بين حشد المستجدات، ومزدحم الانشطة، معه وعليه، وحول الظواهر غير المحسوبة، او المحسوبة النتائج وبين الحبال والمؤامرات، والمهداوي وشمس الدين عبد الله، والبعثيين والشيوعيين، وضع عبد الكريم قاسم نفسه، او وضعته الأحداث ذلك الموضع، فهل يتجزأ وينقسم ويتوزع على الظاهرة والحدث والحزب والحركة والحبل والمؤامرة؟

ولو توزع عبد الكريم قاسم، فهل كان سيرضى كل طرف وظاهرة بنصيبه المقسوم؟ واين كان سيجلس الرجل الوحيد؟ فوق الملوية ام فوق الأهرام أمام الصين الشعبية أم بساتين الشام؟

وما المطلوب في تعامله مع خناجر الشقاة وصهيل الخيل في اسطبلات المنصور.

بين حمامات السلام وحمامات الدم بين القرآن وممزقيه.

وهل يولد الحق من خاصرة الباطل؟ وهل ينجز الأضطراب نظرية مستقرة ويحقق، الأمن للبلد؟

أما المسؤولية فمسؤوليته. وأما الحل فلم يعد بيده كما يبدو.

وحل الثورة عادة يترك للثوريين فهل تصرف حاكماً ام ثورياً؟ حاقداً أم مسالماً؟ حاسماً أم مترهلاً؟ وهل سيخطو مسؤول ما خطوات ايجابية؟ وبتعبير الاعلام الحزبي، هل سيحقق مكاسب لجماهير الشعب وسطذلك المزدحم؟أم أن

عجاجة الشارع خلف اقدام المقاومة الشعبية، وحوافر الخيل ستلفه وتدور به على نفسه فيتحرك وهو واقف.

هنا نقف امام النتائج التي خرج بها عبد الكريم قاسم، وكأنه يُخرج الحق من خاصرة الباطل. فالخط العريض يعبر الاهوار الى البصرة. ومصانع التعليب تأخذ مكانها بين بساتين كربلاء. والأحذية الشعبية في ضواحي الكوفة، وتظهر على السماء، طائرات الميغ المقاتلة. وينتقل العراقيون بطائرات التريدنت السريعة، ويسكن فلاحو اللطيفية في قرية عصرية. وتنهض في البياع مدينة سكنية، تجاورها مدينة العامل. وتظهر مدينة المشتل، كما تظهر القاهرة، والصليخ الجديدة والقادسية واليرموك والضباط والشعب، وتمتد قناة الجيش، ولم تظهر ازمة سمنت ولا عرف العراقيون عزة للطابوق وكرامة للجص، ولم يستطع دلال البيوت ان يكون الحاكم المتحكم في رقاب المستأجرين.

في تلك الاثناء كان الانكليز يرحلون عن الحبانية والشعيبة كما يرحل الغجر. وتصبح لحكومة العراق ملكية اراضي النفط، ولم يترك لشركات النفط سوى واحد وشيء من الواحد بالمائة.

لم تحدث ازمة نقل، وقد ارتفعت الدخول الفردية بنسب مضاعفة. لم ينقطع الكهرباء، وقد ارتفع معدل الاستهلاك اربعة أضعاف، ولم يحدث ان غابت سلعة او اختفت لتظهر بضعف ثمنها. ولم يكن دلالو السيارات آنذاك من حملة الاسهم الاجنبية. فقد كان بامكان موظفي الدرجة الرابعة الحصول على سيارة جديدة باقساط مريحة.

ان القطاع الطفيلي الذي استبد وعربد وطغى على اموال الناس في حكومات العشرين سنة، لم يكن قائماً آنذاك.

وقد اقيمت مدينة الطب، وشقت قناة الجيش، وربطت بغداد بكركوك والموصل والبصرة والنجف بالطرق الحديثة، ولم يظهر عامل كوري، او مهندس فرنسي، ولا عرفت شوارع بغداد جنسيات الشرق اسيوية.

في ذلك المضطرب، ترك العراق الاسترليني يواجه الأزمات وديناره محترم مرهوب الجانب مرغوب في الاسواق.

في ذلك المزدحم تُركت ايران الشاه، وتركية عدنان مندرس، وباكستان اسكندر مرزا، كما يترك الايتام، وخرج عبد الكريم قاسم بالعراق بعيداً عن الاحلاف.

وانتشرت الخضرة في البصرة، وماتت بعد موته..

وبينما اختلفت الأحزاب على معنى الحياد، وتنازعت على الاسماء، كانت اتفاقية التعاون الفني والتجاري مع الأتحاد السوفيتي تسير بوتائر متصاعدة وتنجز للشعب العراقي خطة تنمية جديدة. واصدر تشريع ضريبة الارث لاول مرة والغى قانون دعاوى العشائر. وبينما يطلق الرصاص عليه ينهض من نومه في ساعة الموت صارخاً عفا الله عما سلف.

وبرعايته الشخصية، عقد العمال العراقيون مؤتمرهم الاول، كما عقد المعلمون والطلاب والأطباء مؤتمراتهم الاولى، حيث بدأ العمل النقابي العلني لاول مرة في تاريخ القطر. فاستكملت جوانب اساسية في التحول الديمقراطي، بعد ان استكمل العراق مرحلة الاستقلال والتحرر.

● اقتصاد غير منافق

من وجهة نظر التطور التأريخي، كان عبد الكريم قاسم مخلصاً لطبقته البورجوازية المتوسطة ومرحلتها. فلم يمارس عمليات حرق المراحل او عمليات التهجين التي ظهرت فيما بعد بمزاوجة فرس لينين بحصان آدم سمث.

لقد اعتمد اسلوب تعريق الاقتصاد الوطني، ولم يلجأ الى التأميم، وكان يعتقد وفقاً لتفكيره الطبقي، ان التأميم نوع من المصادرة وممارسة الأرهاب ضد رأس المال. وقد حال في ذلك دون هروب واسع لرؤوس الاموال مما ساعد على استقرار السوق وعدم ظهور اختناقات فيه.

واستخدم في مجال العدل الاجتماعي اسلوب الضريبة التصاعدية على

الـدخـول. ولم يدخل بمزايدات ايديولوجية، كما شرع لأول مرة في العراق قانون ضريبـة المـواريث والتركات. واعتمد من جانب آخر على تحديد موازنة للاستيراد، وتـرك التجـارة حرة داخـل هذه المـوازنـة، مع اخضاع التجارة الخارجية لشروط اتفاقات العراق التجارية مع الاتحاد السوفيتي والدول الأشتراكية بشكل خاص.

ان سيـاسـة عبـد الكريم قاسم الاقتصادية نجحت في عبور انعطاف خطير بعـد خروج العراق من منطقة الاسترليني، وتحوله الى الدول الاشتراكية في بناء خطة التنمية دون مضاعفات او ازمات تنعكس على حركة السوق وحركة الانتاج القومي كما يحدث عادة في مثل هذه الانعطافات الحادة.

ان عبـد الكـريم قاسم لم يلعب لعبـة نشـر الاستبداد الحكومي، وتوسيع رقعة سيادة الدولة على حركة الأنسان، وخلق مواقع جديدة توزع على عناصرها، بالشكـل الـذي انجـزتـه رأسمـاليـة الـدولـة. المسمـاة في قواميسنـا السياسية (بـالتحـولات الاشتـراكيـة) والتي ادت الى وضـع حقوق العمل، وفرص التطور والأنتاج، تحت تصرف سلسلة مراجعها الادارية ذات التدريب البوليسي الممتاز.

عنـدهـا لا يكـون للسيـاسي المعـارض فرصـة التصرف والمخالفة. فلم تعد حركته بعيدة عن الرقابة اليومية، ولم تعد فرصته المستقبلية واسعة. كما كانت قبل (التحولات الأشتراكية). يوم كان المعلم يناضل في المدرسة الرسمية فاذا فصل استقبلته الخاصة بالترحاب!

ولم يعد بامكان العامل ان يتصرف سياسياً خارج الخط الحكومي المرسوم في مصنعه الحكومي، وتحت اشراف المدير الحكومي ورئيس العمل الحكومي.

والى اين سيتجه لو صدر الأمر بفصله، وعوقب بقرار اشتراكي؟

انهـا الطـريق الممتـازة لحكم الشعب بمبـادىء مقبـولة تعود على السلطة بالربح الجزيل، وتحكم اجهزة الارهاب سطوتها على حركة العمل ومنافذه، وتترك نوافذ صغيرة يتسرب منها الحاشية والوكلاء والمحظيون، لكي يتحولوا الى حملة اسهم وودائع في المصارف الخارجية.

ان مثل هذا لا يحدث في نظام اشتراكي غير هجين، ولا يحدث كذلك في نظام رأسمالي غير هجين.

ففي اشتراكية لينين يقود العمال سلطتهم من تحت الى اعلى ولا يتركون ادارات مصانعهم لوكلاء البوليس، واشتراكية لينين لا تسمح بوضع ثقوب رأسمالية في نسيجها الكتاني المتين.

كما لا تسمح رأسمالية آدم سمث بحصر فرص الاريستيراد باشخاص حكوميين، او بانابة قيادات بوليسية وأمية لادارة تكنولوجيتها ووسائل انتاجها المتطورة.

ان عبد الكريم قاسم لم يلعب لعبة البغل العربي وترك حركة الاقتصاد منسجمة مع حركة المرحلة.

هذه الاشارة الأولى في مساره الاقتصادي، أما الثانية فتتعلق بظهور تصور عبر عنه اللواء احمد حسن البكر في الصفحات التالية:

البكر ينتقد

أشيع في نيسان من عام ١٩٦٣، أن حكومة اللواء أحمد حسن البكر تتهيأ لاعادة فتح سباق الخيل أمام المقامرين. فاستبدت بي الحمية على سمعة حكومتنا. معتقداً ان هذه الاشاعة جزء من حملة التشهير ضد ثورة ١٤ رمضان ولهذا سارعت لكتابة رد ساخن في زاويتي اليومية بجريدة الجماهير بعنوان (لا لن يعود سباق الخيل يا سادة)، فاتصل بي السيد عبد اللطيف الحديثي رئيس ديوان مجلس الوزراء واستدعاني الى مبنى المجلس. ولا أخفي سعادتي لأعتقادي بما تركه الرد عليه من أثر حسن ولا بد ان اللواء حسن البكر هو الآخر قد استحسن ذلك.

ولدى دخولي لمواجهة البكر قال وقد احنى رأسه الى المنضدة ورفع حاجبيه من وراء النظارة.. ما أدري من أين أخذتم صلاحية اصدار بيانات باسم مجلس الوزراء، حتى (تكذبون) الخبر بالجريدة!. وأضاف - وأنا اهمهم للحديث ولا أجرأ على المقاطعة - أنك يا ابني لا تدرك لماذا اغلق عبد الكريم قاسم سباق الخيل؟

قلت لا والله لا أدري سوى انه مكان للعب القمار؟ قال البكر لا ليس هذا السبب. وانما لأن عبد الكريم قاسم مثلما اطلق يد الشيوعيين والشعوبيين لقطع النسل العربي، فانه منع السباق لقطع نسل الخيول العربية. وان مسؤوليتنا ان نسعى لتربية هذه الخيول، ولهذا سنعيد سباق الخيل، ولا تنسى انه يشغل قطاعاً واسعاً من ابناء الشعب عن مواجهة الحكومة واثارة المشكلات لها، فضلاً عما يدره السباق من واردات لخزينة الدولة التي استلمناها خاوية.

وتطرق اللواء البكر في حديثه لتفسير عبد الكريم قاسم اقتصادياً ولماذا الخزينة خاوية قائلاً.. أنا أتصور عبد الكريم قاسم على الصورة التالية.. شخص يجلس على جسر مود، والى جانبه (كَونيّة) أم القلمين مملوءة بالليرات الصفراء، التي هي ميزانية الدولة، وهو يغرف من الكونية، ويرمي الليرات بالشط، والناس تتفرج عليه، الى ان هيأ الله له ابن الحلال الذي سلم ما بقي في قعر الكونية منها الى الدولة.

لا أنكر ارتياحي الشديد لما عرضه اللواء البكر، وحرصه على الميزانية، فقلت له وما هي الخطوات القادمة التي ستنهجها حكومتنا. قال شد الحزام على البطون، وانتهاج سياسة التقشف، وسألته عن السقف الزمني لاستمرار التقشف؟ قال هذا امر مرتبط بتحقيق اهدافنا القومية. وبشكل خاص قضية فلسطين والعمل الجاد لنصرتها. وأضاف ان سياسة الانفاق غير المخطط تجعلنا عاجزين عن مواجهة متطلبات الاستقلال الوطني.

هذه هي الاشارة الثانية التي تتعلق بمسار عبد الكريم قاسم الاقتصادي. فقد انتشر تصور في الاوساط الاقتصادية والسياسية، بأن قضية فلسطين ومواجهة الاستعمار تتطلب سياسة شد الحزام على البطون، وقد ساعد على تكريس هذا التصور نضال الشعوب ضد الاستعمار في الصين وفي اوروبا الشرقية، والتضحيات التي بذلتها تلك الشعوب، وماتعرضت له من تقشف الى حد الجوع.

وفي المنطقة العربية، كان الرئيس جمال عبد الناصر قد رفع هذا الشعار، واخذ بمبدا التقشف لمواجهة الاستعمار والصهيونية. بينما لم يأخذ به عبد

الكريم قاسم.

ان مناقشة هذا المبدأ ستقرر متى يكون الاخذ به صحيحاً ام لا على الشكل التالي:

١ ـ ان جمال عبد الناصر، وشعوب الصين واوروبا الشرقية خاضوا نضالاً حقيقياً ضد الاستعمار، ودخل عبد الناصر في حروب حقيقية كبرى. سواء في العدوان الثلاثي على مصر، ام في حرب حزيران، ام في حرب اليمن.

بينما لم يدخل العراق في مثل هذا النضال، ولم يحارب الصهيونية سوى اشتراكه مع الجيوش العربية في حرب فلسطين عام ١٩٤٨.

اما مساهماته في الحروب التالية فلم تكن اكثر من مساهمة رمزية، وبادوار ضيوف الشرف في الافلام العربية.

٢ ـ لم تكن للشعوب التي واجهت الاستعمار، ومنها الشعب المصري موارد اقتصادية، كالموارد الكبيرة للحكومة العراقية من عائدات النفط. وبهذا فان سياسة التقشف تصح في مصر ولا تصح في العراق.

أما اخطار هذا المبدأ الاقتصادي في تطبيقاته على بلد كالعراق فهي:

١ ـ انه يستعمل غطاء لعمليات اهدار الثروة القومية، وعمليات تهريب الاموال او اساءة استخدامها من قبل السلطة.

٢ ـ ان الشعب العراقي لم يدخل في مراحل الانتعاش، بالشكل الذي دخلته بلدان نفطية مجاورة، ولهذا فان تطبيق سياسة التقشف معه كانت اقرب الى الافقار والتجويع المتعمد منها الى تنظيم الموازنة المالية للدولة.

٣ ـ ان الشعوب تتقبل سياسة شد الحزام على البطون، حين تتلمس قيادات متقشفة نزيهة، كقيادة عبد الناصر وماوتسي تونغ، لكنها ترفض هذه السياسة وهي ترى قياداتها، بطوناً لا تشبع وافواهاً لا ترتوي، ونهماً شديداً لحب المال والأسراف الاسطوري.

٤ ـ استعملت سياسة التقشف في العراق لتحقيق معادلة تقول للمواطن العادي.. ان فلسطين هي سبب الجوع المستمر! فاذا (سويت قضيتها) تحقق للشعب الرفاه والخير.

ولعله هو التبـريـر الشـرعي الـذي رفعـه انور السادات اثناء اقدامه على الصلح مع اسرائيل.

ان ابتعـاد عبـد الكـريم قاسم عن سيـاسـة التقشف كانت صحيحـة، ومنسجمة مع الواقع. واذا كان الرئيس البكر قد صوره بصورة من يرمي الذهب في ماء النهر فان وقائع معدلات النمو الاقتصادي في العراق تؤكد انه لم يكن يرمي الذهب في ماء النهر ولم يستطع ان يحول ماء النهر الى ذهب.

٥

عبد الكريم قاسم والارهاب

ان مثل هذا السؤال كان سيبدو مسطحاً لو طرح قبل ربع قرن يوم كانت الصحافة العربية والعالمية مشغولة باحداث (الارهاب القاسمي) . فقد اهتزت برقيات مراسلي الصحف الغربية بالذعر لمشاهد الجثث المسحولة بالحبال او المعلقة من على شرفات المباني يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ . ولعلهم نقلوا صوراً منها الى صحفهم، وهي على انها مادة صحفية مثيرة فانها هدف رائع، ونافذة واسعة، يدخل الأعلام الغربي منها للتشهير بالثوريين العرب، وبالوطنيين العراقيين الذين اسقطوا النظام الملكي وارتباطاته.

اما الصحف العربية فقد تحولت بعد اسابيع الى مواضع الخصومة لعبد الكريم قاسم بعد ظهور خلافه مع سياسة الرئيس جمال عبد الناصر، فدخل الاعلام المصري المعركة المناهضة لحكومة قاسم، فاذا اضيفت الصحف اليمينية الصادرة في العواصم العربية والتي فقدت بفقدان نوري السعيد اهم ركائز القوة، ومصادر التمويل، الى الصف المعادي لحكومة عبد الكريم قاسم، صار هذا الزعيم في موضع حرج التقت ضده اعمدة الصحف التي ما كان لها ان تلتقي على شيء.

وقد ساعد على تكريس (صورة بربرية) لعبد الكريم قاسم في هذا الاعلام، احداث الموصل وكركوك الدامية، ووصول المزيد من اشرطة السينما والصور الفوتوغرافية عن اجسام بشرية معلقة على اعمدة الكهرباء، او مسحولة بحبال تجرها الحمير.

كان عبد الكريم قاسم يسمى آنذاك (بالزعيم الأوحد) وهو الوصف غير المخلص الذي اطلقه عليه بعض انصاره المخلصين، فكان طبيعياً ان يكون، المسؤول الاوحد عن المجازر البشرية تلك، وليس لذريعة ان تجد لها سبيلاً لتبرئة رئيس الحكومة من مسؤوليته، فالعالم الخارجي لا يعرف سلطة اخرى مسؤولة عن حياة العراقيين، سوى السلطة التي كانت قائمة، ولا يفهم ان يكون

حزب او فئة اشرف على هذه الأحداث بقدر ما يفهم أنها الفوضى والموت على ارض الثورة العراقية بعد سقوط الصمام الآمن!. ولم يقنع خطاب قاسم في ١٩٥٩/٧/٥ احداً مع أنه صبَّ جام غضبه على المقاومة الشعبية التي اعتبرها وراء تلك الاحداث. ولا خطابه في ١٩٥٩/٧/١٩ في كنيسة ماريوسف في الكرادة الشرقية الذي ادان فيه الأعمال الارهابية في كركوك.

وكان اعدام عدد من رجال العهد الملكي، الى جانب عدد من رجال الثورة الذين انتفضوا ضده في حركة العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل، قد اثار استياء العالم الغربي الذي يمتلك القوة الاعلامية المؤثرة بقدر ما أثار المشاعر القومية للصحفيين العرب، يقابل هذا خواء اعلامي تام في الطرف القاسمي الذي لم يكن له أنصار في الوطن العربي، كما لم تكن له صحف ممولة تدافع عنه في الخارج. فقد كان من مساوىء عبد الكريم قاسم انه لم يكن يتقن سياسة توزيع العوائد النفطية على الشعراء والصحفيين العرب. ولم يكن اعلام الدول الأشتراكية معنياً بدخول حرب باردة من اجل عبد الكريم قاسم لا سيما بعد انتقاده للشيوعيين العراقيين وعدم موافقته على اجازة الحزب الشيوعي العراقي او اشراكه في الحكم.

لكن الاهم من ذلك، انه لم يمتلك مخابرات مدربة على الاغتيال، وهي تحمل صفات او هويات السفير والقنصل والمستشار، وهو امر يغري الكثيرين لكي يكونوا ابطالاً مغاوير وفرساناً صناديد، ومناضلين تسجل اسماؤهم في كتب التاريخ.

لكن صورة اخرى لعبد الكريم قاسم غير الصورة هذه قادرة على ان تجد طريقها الى العالم بعد ربع قرن، وليس من الصعوبة على احد مريديه ان يستعرض فقرات من الأحداث والحالات والشواهد التي يستطيع بعدها تقديم صورة جذابة لشخصية غير عدوانية، لا تميل الى الانتقام،

انه يبدو من هذه الزاوية متسامحاً الى حد الليونة وطيباً الى حد السذاجة، هكذا يقول الطرف الآخر فيه مرتكزاً على شيء مما يلي:-

١ -رفض عبد الكريم قاسم المصادقة على احكام الموت التي اصدرتها

المحكمة العسكرية الخاصة ضد عدد من رجال العهد الملكي على الرغم من ضغوط هيئة المحكمة وظهور مقالات وقصائد شعرية تستنجد به وتحرضه على توقيع احكام الموت هذه. ان المظاهرات التي خرجت في بغداد ومدن أخرى وقصائد الشعراء كانت تهتف بشعارها اعدم.. اعدم جيش وشعب يحميك.

ويستدل مريدوه وانصاره من هذا الهتاف، على انه كان مصراً على رفض احكام الأعدام، ويضيفون ان حركة العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل، استغلت من قبل المجموعة الضاغطة على قاسم، باتجاه تنفيذ الاحكام. فقد اشار عليه هؤلاء بان تردده او رفضه المصادقة على التنفيذ، انما فسر على انه ضعف وخوف استثمره العقيد الشواف، فقام بحركته المعروفة وعليه فان السكوت ازاء حاملي السلاح بوجه الثورة سيدفع آخرين على عمل مماثل الأمر الذي اقنع عبد الكريم بالموافقة على تصديق الأحكام.

٢ ـ رفع عبد الكريم قاسم شعاراً طالما كرره في خطاباته، مما جعله مثلاً سائراً في الناس، ومما جعل الأطفال في الأحياء الشعبية، اذا اخطأ احدهم، قال (عفا الله عمّا سلف). وتحول الشعار الى اوساط اجتماعية واسعة، فكان الرجل اذا أراد تهديد أحد، قال سأقتله والزعيم يعفو عنّي!

٣ ـ يقدم انصار عبد الكريم قاسم شواهد وأمثلة على تسامحه، في الحالات التي يتعلق الأمر به شخصياً، فقد عفا عن الاشخاص الذين اشتركوا باطلاق النار عليه، واصابته اصابة بالغة، يوم ٧/ تشرين الاول/ ١٩٥٩ في شارع الرشيد ببغداد، وكان القرار باعدامهم قد حدد في يوم فجر معين لكن عبد الكريم قاسم لم ينم ليلته، فامر بفتح اجهزة التلفزيون في الساعة الثانية من فجر ذلك اليوم، ليعلن قراره بالعفو عن المشتركين في تلك المحاولة، واطلاق سراحهم، فكان عرساً مشهوداً خرجت فيه سيارات معارضيه تجوب الشوارع، والموسيقى تصدح، ليس تاييداً له، بل استقبالاً للمعفو عنهم.

٤ ـ كما عفا عن عبد السلام عارف الذي ادين بمحاولة قتله، وقد اعترف عبد السلام فيما بعد، بمذكراته التي نشرتها مجلة روز اليوسف المصرية، انه كان ينوي بالفعل اغتيال عبد الكريم قاسم بمسدس كان يخفيه تحت ملابسه.

وحين تمكن عبد السلام منه في يوم ١٤ رمضان عام ١٩٦٣ أبدى تحمسه الشديد لأعدامه.

٥ ـ ان أغلب الأشخاص الذين حكموا العراق، منذ ١٤ رمضان عام ١٩٦٣، كانوا موقوفين او معتقلين، وقد أفرج عنهم تمشياً مع شعاره المذكور.

٦ ـ كان يؤمن فوق ذلك بنظرية تقول (الرحمة فوق القانون) في وقت تحول فيه الساسة الى مخالب وقواضم.

لقد احتج رجال القضاء في العراق على تسامحه، وكانوا يتذمرون من انهم يصدرون الأحكام اليوم، ليلغيها الزعيم غداً.

٧ ـ اذا كانت تلك الشواهد التي يسوقها مريدو عبد الكريم قاسم للدلالة على تسامحه، وعدم عدوانيته، وحلمه، ترتبط او تتعلق بمزاج شخصي، هو عرضة للتغير، فان حالات اخرى وظواهر تؤكد هذا الاتجاه، من خلال الهيكل التنظيمي للدولة، او من خلال الألتزامات الاخرى لعبد الكريم قاسم، زعيماً ورجل دولة. فهو لم يشكل منظمة قمعية تابعة له تحت اي أسم، ولم يوافق على استحداث جهاز أمني خاص به، بل اكتفى بالأمن العامة، وأبقى على أغلب عناصرها القديمة، تمشياً مع مذهبه في التسامح.

لكنه في بعض الحالات، كان يعتمد على (الانضباط العسكري) الذي كان بأمرة العقيد عبد الكريم الجدة، وهو جهاز تابع للجيش، ومشّرب بقيم عسكرية تمنعه من ممارسة اعمال التعذيب او التجسس ضد مواطنيه.

٨ ـ ان عسكرية عبد الكريم قاسم منعته هي الأخرى من تقريب رجال الشرطة والأمن اليه، وكان لا يرتاح اليهم باعماقه كما لم يبد اي اهتمام خاص او غير خاص باجهزة الشرطة والأمن، فقد رفض مساواة ضباطها بالرتب العسكرية لضباط الجيش واوكل قيادتها الى ضباط من الجيش أشرفوا على الشرطة العامة والأمن العامة، ولعله لم يكن بحاجة الى تقريب أحد منهما ثقة بنفسه، لأنه لا يضمر مهمات خاصة، ولا ينصب كمائن لأحد.

٩ ـ كان عبد الكريم قاسم لا يفكر باساليب الأيقاع بخصومه، ولهذا لم يستعمل على الأطلاق طريقة زرع الجواسيس، واجهزة التنصت ضد أحد منهم، كما كان يأنف من اشغال نفسه بقراءة التقارير الامنية ضد الآخرين، وقد ترك الأمر لمسؤولي تلك الأجهزة.

١٠ ـ لم تكن شخصيته تتأثر ببرود الفعل الانتقامية ازاء منتقدي سياسته

ومعارضيه الشخصيين.

ففي الوقت الذي كان فيه الشاعر عدنان الراو ي، يقدم برنامجه اليومي من اذاعة صوت العرب في القاهرة والموجه ضد عبد الكريم قاسم، كانت عائلته تتمتع بكامل حقوقها المدنية والانسانية. و في الوقت الذي كان فيه الشاعر محمد مهدي الجواهري، يتعرض بقصائده في الخارج بشخصية عبد الكريم قاسم، فيقول عن نفسه..

إذ رأى العيش مداراة زنيم لا يدارى،

كان الجواهري موضوعاً يدرس في كتاب الادب العربي لطلبة الصف الثالث المتوسط، وكانت الصحف تنشر قصائده الجديدة.

وبينما يتمرد الشواف بحركة عسكرية مسلحة ضد حكمه، وينتهي تلك النهاية المفجعة، كان عبد الكريم قاسم يتمسك بوزير الصحة اللواء الشواف شقيق قائد الحركة.

١١ ـ لم يحدث خلال فترة حكمه، لأحد معارضيه ان تعرض لعملية اغتيال او أختطاف، سواء داخل العراق، ام خارجه، بل كان قاسم نفسه عرضة لمحاولة اغتيال قام بها معارضوه.

افادة شاهد عيان

واذ نعتقد ان عرض احدى عشرة حالة كافية لرسم صورة عبد الكريم قاسم الانسـانية، فاننا نستعرض في الصفحات التالية حكايات ومشاهد، او لنقل افادة شاهد عيان، كان فيها كاتب السطور طرفاً او شاهداً، فلعل فيها ما يساعد على دعم التاريخ في محاولاته المستمرة للكينونة المستقلة عن تأثيرات الهوى والغرض وفي الحكم على احـد صانعي الأحداث الكبرى في تاريخنا الحديث، حكماً منصفاً بعد

ربـع قرن كان العـراق فيهـا مسـرحاً لاحداث ساهمت في اعادة تقييم عبد الكريم قاسم من قبل خصومه ومعارضيه.

● ليلة اعدام الطبقجلي

في مسـاء التـاسـع عشر من ايلول عام ١٩٥٩، وكنت احمل مقالاً الى جريدة الحـريـة، اطلعت على خبـر تنفيذ حكم الاعدام ضد الزعيم الركن ناظم الطبقجلي، والعقيـد رفعت الحـاج سري، في فجر تلك الليلة، وكانت منظمة الحزب في الكرادة الشـرقيـة تعـد لاحتفالها بذكرى المولد النبوي. وهو قرار اتخذ كما يبدو لاحراج الشيوعيين، وكسب الرأي العام المتدين في معركته ضد عبد الكريم قاسم والحزب الشيوعي العراقي. وكنت عضواً في اللجنة التي شكلت لوضع برنامج الاحتفال، ووضـع كلمـة الحـزب والتي كلفت بالقائها، الى جانب شاب يدعى عامر ميخائيل الخياط، الطالب في كلية الهندسة، ومقداد العاني الطالب في كلية الطب. ولما كان كل منهمـا بعيـداً بحكم واقعـه، عن موضـوع كهذا، فقد بدأت اكتب الكلمة

المطلوبة، ولاحظت ان عامر كان يكتب هو الآخر.

اقيم الاحتفال بمحاذاة سدة البوليسخانة شارع الكرادة الشرقية ـ خارج، فتناولت المايكروفون فارتجلت كلمة، على الرغم من ان مقداد كان يحمل كلمة عامر على انها كلمة الحزب، وكنت واقعاً تحت تأثير خبر اعدام الطبقجلي فجر غد، واخذني الحماس بعد ان اعلنت الخبر الى الحاضرين، وقلت كلاماً قد يكون في اعادته، نوع من الادعاء، ولكنه يدخل في اطار مهاجمة الموقع على قرار الاعدام.

وانصرف الجميع بعد انتهاء الحفل دون عوائق!

ان عبد الكريم قاسم الذي شتم في الاحتفال لم يجد سبباً لعقوبة المتحدث، لكن المنظمة هي التي عاقبته لخروجه على كلمة عامر الخياط في المولد النبوي!

● مناشير في غرفة الزعيم

كان الحزب قد اصدر منشوراً بعد اعدام الطبقجلي ورفعت، رحمهما الله، هدد فيه بالأنتقام لهما، فتقرر وضع المناشير في غرفة عبد الكريم قاسم، بواسطة أحد الأطفال الذين اعتادوا الدخول والخروج الى بيت حامد واللعب مع اولاده. والذي قام بالمهمة على خير وجه وبسهولة، بعد أن أخفى مجموعة من المناشير تحت ثيابه ودسها على سرير الزعيم، اذ لم يتعود أحد منهم على اقفال الباب. ولدى دخول الزعيم الى غرفته، فوجيء بحزمة مناشير مخبأة تحت الفراش.

فلم نلاحظ رد فعل ضد القائمين بهذا العمل، وهم معروفون لديه ولدى عائلته. الا اننا سمعنا بان حامد يفكر بالأنتقال الى دار أخرى باشارة من الزعيم نفسه، وقد تم ذلك فيما بعد.

● مظاهرة احتجاج ضد الاعدام

خرجت مظاهرة احتجاج كبيرة من الأعظمية واخترقت شارع الضباط في

راغية خاتون، ومرت امام بيوت ضحايا الأعدام في الخامس والعشرين من ايلول عام ١٩٥٩ . ومن هتافات المظاهرة الثأر للشهداء، هذا البعثي يهز جبال اسمع يا كريم، هذا البعث يهز جبال اسمع يالخاين.

ولم يتحرك كريم لضرب المظاهرة بالدبابات او قصفها بالطائرات ولم يتعرض لها شرطي او جندي.

● يوسف عمر يتعرض

اقيمت منقبات نبوية على ارواح الطبقجلي ورفاقه، ساهم فيها قارىء المقام يوسف عمر، وقارىء القرآن عبد الستار الطيار. وكان كل منهما يقرأ قصائد معادية للوضع القائم آنذاك. وتنصب المايكروفونات في الأماكن العالية، دون ان يتعرض لها أحد من رجال الشرطة والأمن والأنضباط العسكري، لكونها اصبحت أماكن دينية. ولم يتعرض عبد الكريم قاسم بهذه الأماكن طيلة فترة حكمه، مع انها كانت مراكز نشاط معادٍ له.

وبرز اسم يوسف عمر ليس مطرباً بل محرضاً من أهم المحرضين ضد ذلك الحكم. وكانت حفلاته الغنائية العادية تنقل بالاذاعة والتلفزيون بشكل مستمر.

● وشاية امام المهداوي

أطلعت على تقرير في ملفتي الشخصية، مرفوع من قبل الطلاب الديمقراطيين في مدينة حديثة شتاء عام ١٩٥٩، الى العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس المحكمة العسكرية الخاصة، حول تطاول كاتب السطور اثناء القاء محاضراته، على العقيد المهداوي وعلى الزعيم شخصياً. وانه يحرض اهالي حديثة ضد حكومة الثورة، وضد العناصر الديمقراطية. وقد دهشت لهذه المفاجئة التي اكتشفتها بعد عشر سنوات تقريباً. وعلى هامش التقرير فقرة كتبها

العقيد المهداوي، باحالته الى السيد وزير التربية (اسماعيل العارف آنذاك)، الذي كتب عبارة تعني عدم الأنشغال بهذه القضايا، لأنها مسؤولية تربوية خاصة بالوزارة، واشار الى حفظ الكتاب!

انه يبدو اجراء غريباً في ايامنا هذه وهو غريب على تصوراتنا السابقة ايضاً، لكنه ليس غريباً على رجال الحكومات في العالم، فليس المقرر في المسؤول ان يكون خصماً للناس، وليس المقرر في الوزير ان يكون شرطياً... سرياً..

● التعريض بعبد الكريم قاسم والمهداوي

كان عبد الكريم قاسم، كما كان المهداوي، هدفاً لنكات ساخرة، ونقدات لاذعة، ولأهازيج يهزج بها البعض ضدهما، ليس في المجالس الخاصة، بل في الأماكن العامة والمناسبات. وقد كانت للمهداوي حصة الأسد من هذه الفعاليات. ففي يوم من شهر كانون الثاني عام ١٩٦١، وكنت آنذاك مدرساً في ثانوية الرمادي، عقدت ندوة ثقافية عامة، دعي لها جمهور غفير، ضمن برنامج ثقافي اشرفت عليه المنظمة الحزبية. تحدث فيها المحاضر عن معنى الثورية، فغمز عبد الكريم قاسم بوضوح، قائلاً ان الثوري ليس هذا الذي تغني عنه مائدة نزهت واحلام وهبي. وتطرق الى تعريف خاص، لم يكن اغلب الحاضرين على معرفة به لكونهم اخذوا تعريف الثوري عن نشرة حزبية صدرت حديثاً آنذاك. فاختلف المشتركون في النقاش طويلاً وانقسموا فريقين، كان يتزعم فريق معارضه المحاضر السيد خاشع المعاضيدي، عميد كلية التربية حالياً، واذ هم كذلك، نهض طالب من بين الحاضرين على المسرح، واستل المايكروفون ليلقي النكتة التالية حسماً للخلاف، اوردها كما جاءت على لسان الطالب (اسامة رشيد حويش) ابن شقيقة العقيد عبد السلام عارف، الذي كان آنذاك سجيناً. (اعتادت زوجة المهداوي ان تخاطب ابنها بكلمة ابن الحمار في كل مرة.. وبينما كان الى جانبها بالسيارة، خرج حمار الى وسط الشارع، فصرخ ابن المهداوي باكياً ماما.. ماما اوكفي أخاف بابا ينسحك).

ضجت القاعة بالضحك والتصفيق، ومضى كل الى سبيله، كأن شيئاً لم يكن بحضور رجال الحكومة، منّ موظفي المحافظة ومديرية التربية.. لكن العقوبة صدرت فيما بعد من المنظمة الحزبية ضد المحاضر الذي لم يلتزم بالتعريف الوارد للثورية في المنشور الحزبي!.. وكان من بين المشاركين في الندوة من المدرسين كل من رشيد المعاضيدي وخاشع المعاضيدي ووحيد مكي العاني وعبد الكريم مكي وعصام رشيد حويش، وعدنان مصطفى العانيودحام الالوسي وصالح عبد الحمد. وكاتب السطور، ومن الطلاب. غازي حمود العبيدي وصبار الحديثي، وسواهم..

● شعوبي ومجنون

كانت المعارضة القومية ضد عبد الكريم قاسم (واثقة) من سقوطه بحالتين، لا تفتأ تكررهما في المنشورات والبيانات والاحاديث الخاصة، هما الشعوبية والجنون، وحولهما كانت تحوم النكات وتكتب المقالات.

وتمشياً مع هذا المعتقد، الذي لا شك ان عبد الكريم على علم به، فقد نشر كاتب السطور في جريدة الحرية سلسلة مقالات حول الشعوبية غمز فيها شخصية عبد الكريم قاسم مباشرة، ولم تتخذ اجراءات قمعية او تأديبية او أحتراسية ضده. وكان عبد الكريم قاسم يكرر اسم الجمهورية العراقية الخالدة، فسارع كاتب السطور الى نشر مقال في الجريدة نفسها بعنوان احلام الفلاسفة ناقش فيه، الحالمين بالجمهوريات المثالية، كفابيس وافلاطون وبيكون والفارابي، وسخر من وجود جمهورية خالدة. قائلاً ان افلاطون كان عاقلاً لأنه لم يقل ان جمهوريته خالدة. وهي لا بد ان تتعرض للزوال، ولا يخفى ما في هذا النص من تسفيه لفكرةخلود الجمهورية، واعتبار القائل بها مجنوناً.

نشر هذا المقال، بعد حوار قصير مع مدير التحرير الصحفي المعروف فيصل حسون، الذي قال للكاتب اخشى ان تسجن ستة شهور، اذا نشر المقال، فأجابه

(هـذا المقـال يسـوة ست سنـين!). فلم يسجن كاتبـه ولا ستـة ايـام، وكان رقيب المطبـوعـات الـذي وافق على نشـر المقـال هو العقيـد الدكتور لطفي طاهر شقيق المرافق الأقدم لعبد الكريم قاسم العقيد وصفي طاهر.

● يسرى وإياد

كانت المحكمـة العسكـريـة الخاصة، ما زالت تنظر بقضية محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وتنقل جلساتها نقلاً حياً على الهواء مباشرة على الشاشة التلفـزيـون والأذاعـة. فعرف الناس اسم يسرى سعيد ثابت، وأياد سعيد ثابت وخـالـد علي الصـالـح، الـذين اعطـوا للرأي العـام، نمـوذجـاً لمن يدافعون عن معتقـداتهم ومـواقفهم، ولـو ادى ذلك بهم الى موت محقق. وقد وجد معارضو عبد الكـريم قاسم في هذه الاسمـاء، فرصـة لأطـلاقهـا على مواليـدهم الجـدد وكـانت الصحف القـوميـة تنشـر اخبـار المـواليد بحروف بارزة، ولعل عبد الكريم قاسم اطلع على ذلـك، كمـا اطلع عليـه القـراء، وكمـا اطلعت عليـه قبـل ذلك ممرضات مستشفيات الولادة واداراتها الحكومية. ولا يخفى ما في ذلك من تحد صريح لعبد الكـريم قاسم، وتعـاطف صريـح مع المشتركين باطلاق النار عليه، ولم يصدر اي تصـرف من عبـد الكـريم قاسم واجهـزته الأعلامية والحكومية يدل على ضيق من هذه الظاهرة الاستفزازية ضده، والتي بلغت نسباً تكاد ان تكون قياسية في سجل الاحوال المدنية.

● محاصرة انصاره

تعرض انصار عبد الكريم قاسم الى مضايقات، ادت ببعضهم، الى ترك محل سكنـاه الى مكان آخـر، وفي الانتخـابـات النقـابيـة والمهنيـة، كانت مجمـوعات معـارضيـه، تتصـدى بالهـراوات للمـرشحـين او النـاخبـين الـذي يعتقد انهم

سيصوتون للقائمة القاسمية او الشيوعية المناصرة له!! لمنعهم من الادلاء باصواتهم، في محاولة لأنجاح مرشحي قوائمهم الانتخابية.

وكانت الصحف القاسمية والشيوعية تستنجد، وهي تشير بالأسماء والمواقع، الى حدوث هذه التجاوزات المبررة، بانها رد فعل لتجاوزات سابقة، قامت بها تلك الجهات، كان انصار عبد الكريم قاسم يتساقطون الواحد بعد الآخر في الانتخابات المهنية، ولم يتحرك باتجاه خطوة بوليسية، لانقاذهم سوى حالات كانت تتم بالاتفاق بين بعض المرشحين، ومسؤولي الادارة الحكومية في بعض المحافظات خارج القرار المركزي.

كنا نشاهد سقوط نقيب لمعلمين المناصر لعبد الكريم قاسم، وفوز النقيب المعارض الدكتور احمد عبد الستار الجواري. بعيداً عن اجراءات لاحقة بالغاء الانتخاب او تعطيل قانون النقابة. وقد حدث ذلك في نقابة الصحفيين ونقابة المحامين ونقابة الأطباء على فترات.

● الحياة داخل المعتقلات

تخللت هذه الأحداث مداهمات رجال المقاومة الشعبية، في الشهور الاولى من الثورة، وقام رجال الأمن بعد ذلك بالقاء القبض على اعداد من القائمين بفعاليات مضادة لنظام الحكم.

وكانت اجهزة الأعلام العربية والغربية تتحدث كما يتحدث الشارع العراقي عن احتجاج بالغ، وضيق من اجراءات حكومة الثورة ضد معارضيها. مما اظهر عبد الكريم قاسم واحداً من الحكام الارهابيين، او القساة في التعامل مع مواطنيهم المعارضين.

فما هي صورة الحياة في معتقلات قاسم التي كثر الحديث عن بشاعتها؟

ان الحديث يشمل اربعة شهور من حكم قاسم هي التي تمتد من ١٩٥٩/٣/٩ اي من حركة العقيد عبد الوهاب الشواف في الموصل الى ١٩٥٩/٧/١٩ عندما هاجم عبد الكريم قاسم في خطابه بكنيسة ماريوسف

مسببي احداث كركوك، ووصفها بالأرهابية. كما ندد في وقت سابق وفي يوم ١٩٥٩/٧/٥ بالمقاومة الشعبية في مؤتمر صحفي قال فيه: (ان العراق كان سيخسر سمعته العالمية والداخلية بسبب ما يقوم به الفوضويون من الارهاب..).

ان هذه الفترة كانت مدانة من قبل رئيس الحكومة نفسه، فما معنى ادانتها بعد عشرين عاماً؟ وعلى الرغم من ذلك فهو يتحمل مسؤولية الانفلات الذي حدث في تلك الشهور الاربعة. وما رافقها من تجاوزات نفخ الاعلاميون فيها بمزاميرهم حتى صارت بالشكل الذي تتناقله السنوات، دون توقف او مراجعة، ولو بسيطة.

لقد اعتقلنا في ١٣ آذار عام ١٩٥٩، في معسكر الخيالة قرب ساحة الكشافة ببغداد، ولمدة شهر كنا نمارس فيه حياتنا الشبيهة بحياة نزلاء المستشفى الأهلي. فالزيارات مستمرة، والطعام من الخارج، وتجوالنا بين الردهات اعتيادي. لكننا خرجنا محملين باساطير عما تعرضنا له من آلام، وقاسينا من جوع. فلعل في هذا الحديث ما يجعلنا مناضلين أشداء.

وفي تشرين الأول من العام نفسه، استجوبنا على أثر محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم لفترة وجيزة في ظرف كان من الممكن، ان تمتد النار فيه الى مساحات خضراء او بعيدة. الا أن واقع الحال كان غير ذلك، فقد اقتصرت الاعتقالات على المساهمين الفعليين في العملية دون تشعبات. كما اقتصرت الاحكام على عدد من المشتركين بالعملية، دون ان تمتد الى تصفية الجهاز الحزبي، واتخاذ (المحاولة) ذريعة لمثل هذا الاجراء.

وفي الاول من نيسان عام ١٩٦١، اعتقلت مجموعة ثانوية الرمادي ليس بسبب مباشر من نشاط استمر اربعة شهور، تعرض فيه المشاركون من المدرسين والطلاب بحكومة عبد الكريم قاسم وشخصياتها وسياساتها، وانما بسبب تعطيل الدراسة في مدارس اللواء وتحريض الطلاب على الخروج الى الشارع للتظاهر، وقطع طرق المواصلات البرية التي تربط العراق بسورية والاردن ولبنان، واحراق عدد من السيارات الحكومية في اضراب البنزين المعروف، وسنفصل الحديث في هذه الفترة التي استمرت الى اواخر عام ١٩٦١ واوائل عام ١٩٦٢ حيث اطلق سراحنا، وبدا الترشيح لنقابة المعلمين فيما بعد وكان مرشح

الحكومة السيد جاسم عثمان العاني قد فرض على مديري الامن والاستخبارات اعتقال مرشحي قائمة المعارضة شرطاً لأستمرار ترشيحه، فاقتيد الى المعتقل ثلاث وجبات حال دون استمرارهم الطويل في السجن. سقوط حكومة عبد الكريم قاسم يوم ٨ شباط.

● في معتقل جلولاء

كان اسم الثكنة الحجرية الذي ابلغنا مفوض موقف السراي، بالأنتقال اليه غداً، مثيراً للرعب، فلقد جنح بنا الخيال بعيداً فتصورنا الثكنة الحجرية.. كهوفاً محفورة داخل جبال حمرين، مزروعة بالعقارب الصفراء والسوداء. وهو التصور الذي اعتقده أهالي الموقوفين، الذين اشعروا بالتلفون بنقل ابنائهم الى الثكنة الحجرية. وربما قدموا لجيرانهم وصفاً مستقى من ذلك التصور! وهو ما احسسنا به في اليوم التالي اثناء توديعهم لنا.

اتجهت سيارة الأجرة، التي استأجرناها من جيوبنا الى جلولاء بعد أن شد كل أثنين بسلسلة حديدية واحدة، وكان صاحبي رجلاً كردياً يدعى مصطفى ناريمان، واذ نحن في منتصف الطريق، اعلن المذيع في نشرة اخبار الظهيرة، عن صعود اول أنسان الى الفضاء بمركبة سوفيتية. فالتفت الي صاحبي قائلاً هل يستطيع الموثوقون بالسلاسل الصعود الى الثكنة الحجرية؟ وهل توجد في القمر معتقلات للبشر؟ ولم نكن ندري، اننا في ذلك اليوم، كنا أول محجوزين يفتتحون تلك القلعة التي بناها بكر صدقي عام ١٩٣٦ مقراً للحامية العسكرية. وقد حولها الحاكم العسكري العام الى معتقل لاستيعاب الأشخاص الذين القي عليهم القبض في اضراب البنزين. وقد خصصت قاعةكبيرة، لكل حزب او مجموعة، فالتقى البعثيون والشيوعيون والقوميون العرب واعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني في ساحة واحدة، كانت تتسع لثلاثة اضعافهم!

خصص لكل موقوف من الدرجة الأولى ٤٠٠ فلس يومياً، و ٣٠٠ فلس للدرجة الثانية،وكلف متعهد بالحضور مساء كل يوم لتسجيل طلباتنا، بعد ان

توزعنا الى فرق لا يزيد عدد الواحدة منها على ١٤ شخصاً، وكانت المواد التموينية تصلنا صباحاً، وتسدد اثمانها من مخصصاتنا اليومية. وكان لكل فرقة مطبخ خاص بها.

اما رواتبنا في الدوائر او الشركات، فتصرف انصافها على ان تجمع الأنصاف الاخرى، بعد الخروج من المعتقل، وهي فرصة ثمينة لمن يريد التوفير. فقد رفضت استلام انصاف الرواتب الى حين اطلاق سراحي. وكنت قد استلمت كتاباً من المديرية بترفيعي الى راتب ٣٦ ديناراً اسمياً وانا في المعتقل، اذ توجهت حالاً، الى مديرية تربية الرمادي، ومعي كتاب اطلاق السراح، فصرفت رواتبي المتجمعة والتي زادت على ثمن سيارة اشتريتها من معرض بغداد، في ساحة الجندي المجهول فعدت بها الى البيت.

من الأسماء التي كانت معنا في جلولاء، وعرفت في الساحة السياسية فيما بعدعمر دبابة الذي دبر له حادثة هروب، فالتحق على اثرها بقيادة الملا مصطفى البارزاني، الذي اعلن الثورة على حكومة عبد الكريم قاسم بعد ايام من التحاق دبابة. وناظم كزار مدير الأمن المعروف بجلاد قصر النهاية. ومحمد فاضل عضو القيادة القطرية في السبعينات، والذي اعدم مع ناظم كزار عام ١٩٧٣، والشقي المعروف جبار الكردي، وعبد الاله الوائلي، وفالح المجول، وعبد الرزاق الغريري، وصبيح الكبيسي، وممتاز قصيرة.

كانت ليالي المعتقل تتحول الى جلسات حزبية وأهازيج، وكان ناظم كزار، وهو اذ ذاك طالب في معهد الهندسة، يعقد محكمة خاصة يشترك فيها محمد فاضل الذي كان طالباً في الصف الثاني من كلية التربية، وعبد الاله الوائلي الذي يمثل دور المهداوي في المحكمة، والتي تقضي عادة على المتهم اليومي عبد الكريم قاسم بالاعدام، فيقوم ممتاز قصيرة الطالب في كلية الطب بالموصل بتشريح الجثة. وهو يقول راح الزعيم.. اطلقوا سراح عبد السلام من السجن يا اعضاء المحكمةوتنهي المحاكمة باغنية لناظم كزار يشاركه شقيقه علي واعضاء المحكمة(احنا بالقلعة ما بيها طلعة.. واللي يريد يطلع، تطلعله صلعة). فيثير احتجاج الشخصيات الرجعية المحسوبة على العهد البائد، والتي اعتقلت معنا في احدى الردهات، كما

يثير في بعض اغانيه المجموعة القومية، التي اشتبكت معنا بمعركة دامية، احتمى فيها كاتب السطور خلف الشقي جبار الكردي

كان الموقوفون يلعبون الكرة الطائرة، ويستحمون بحمامات خاصة، ويقرؤون الصحف، ويستقبلون عوائلهم شهرياً، ولم يكن يزعجهم سوى وضع المرافق الصحية خارج المبنى وتحديد ساعات في اليوم معينة يسمح لهم بها في الخروج.. مما يثير استياءهم، فيدخلون بمساجلات مع آمر المعتقل المقدم ظاهر بابان الذي تبدو الطيبة على وجهه، وترتسم مع كلماته الخجولة..

ومن المصادفات ان نزور الثكنة الحجرية بعد اعادتها الى مقر للفرقة الخامسة في ايلول عام ١٩٦٣. وكان عبد السلام عارف يقوم بجولة ميدانية للتعرف على مناطق القتال في كردستان. وكان بمعيته كل من صالح مهدي عماش، وحردان التكريتي، وعبد الرحمن عارف وابراهيم عبد الرحمن الداود، وصبحي عبد الحميد. واذ خطا عبد السلام عارف اولى خطواته داخل الثكنة الحجرية، مقابل باب القلعة الأولى التي كانت مخصصة للمعتقلين الأكراد، طلع عليه ضابط من بعيد وهو يهتف. (عاش جمال عبد الناصر، عبد الناصر زعيمنا، الوحدة طريقنا) والضابط هو العقيد ابراهيم خليل السعدي، فادار عبد السلام وجهه نحو مرافقيه قائلاً (انطونة مفكّة خلّي انجر نفس)، وكأنه نسي بأنه لم يعط مفكّه لعبد الكريم قاسم.. وكانت الشعارات الوحدوية ما زالت مكتوبة على الجدران. فاعتقد عبد السلام انها كُتبت بعد ١٤ رمضان، ولم يدر بانهامكتوبة

باصابع الموقوفين في معتقل عبد الكريم قاسم!

وغادرنا الثكنة الحجرية بطائرات عمودية، ولدى عبورنا فوق جبل دربندخان وارتفاع الطائرة الى علو يبعدها عن مرمى (البرنو) الكردية، فقدت الطائرة توازنها، ولم تعد قادرة على التحليق، او التحكم بالهبوط، فهبطت بسرعة الى الأرض، بعد ان اكتسحت خيمة عسكرية فتحطمت مراوحها، وأصيب احد الجنود على الأرض بجروح، الا أن عبد السلام فتح باب الطائرة بسرعة قائلاً..

(لو وحدة من اثنين جان كالوا ملّه برو سواها).

وبعـد ثمـانيـة اسابيع من هذه الزيارة، قاد عبد السلام عارف انقلابه على حزب البعث في ١٨ تشرين عام ١٩٦٣، فعدنا الى الاعتقال ثانية، ولكن بدون ممتاز قصير الذي اعدمه عبد السلام عارف أمام مبنى كلية الطب في الموصل!.. اما محمد فاضـل ونـاظم كزار فقد اعدما في تموز عام / ٧٣ من قبل حكومتهما. وهكذا انتهى مصير نصف اعضاء المحكمة التي شكلها المعتقلون في جلولاء لمحاكمة عبد الكريم قاسم واعضاء حكومته.

الفردي والديكتاتور

ما هي النتائج والاحكام النهائية التي يحملها القارىء بعد هذا العرض؟ وهل سيكون قراره في عبد الكريم قاسم واحداً؟ واذا لم يكن عبد الكريم قاسم ديمقراطياً ليبرالياً فهل كان ديكتاتوراً؟ وهل تصنف ظواهر حكمه، التي جئنا على اطراف منها، على انها تنتمي الى نظام ارهابي؟

لا أخفي لحظة الحرج التي وُضعنا فيها بعد هذا العرض، فليس الحكم عليه بالأرهاب مقبولاً من خلال الطبيعة النفسية لعبد الكريم قاسم، وعدم ميله، او استعداده لتأسيس سلطة ارهابية كاملة. واذا حكمنا عليه بالديمقراطية فان فرديته تحول دون اصدار الحكم.

ان ذلك يقودنا الى التعويم، او التوقف لحظة عن تقرير النتائج النهائية، بعد مضي عشرين سنة على مقتله. حتى نستكمل الحلقات التالية، من تصوراتنا. لا سيما ضرورة البحث في معنى الفردي والديكتاتور . حيث لم يحدث فك ارتباط بين الكلمتين في الاستعمالات اليومية أم في الأدبيات الحزبية. وفي القاموس السياسي المستخدم محلياً وعربياً، تتبادل الكلمتان معانيهما.

فالدكتاتور هو الفردي والفردي هو الدكتاتور، مع ان كلًا منهما حالة تتصل في الأخرى وتنفصل عنها. فاذ يلتقيان في كون الدكتاتور لا بد ان يكون فردياً، فان الفردي قد لا يكون دكتاتوراً.

ان الدكتاتورية نظام حكم ونظرية عمل تعتمد على بناء فولاذي متين للأجهزة الحكومية، ذات طابع بوليسي غير قابل للأختراق، بينما نلاحظ الحكم الفردي، قابلًا للأختراق من اية نقطة تشاء، كما يلاحظ الترهل في النظام الفردي والإزدواج في القرار او في وحدة مواقف الجهاز الحكومي. تقابله وحده متكاملة

ومركزية مترابطة الحلقات غير قابلة للأزدواج في النظام الدكتاتوري.

ان الفـردي محب لنفسـه، نرجسي يقـوده ذلـك الشعـور الى الاعتقاد، بان النـاس جميعـاً معـه، بسبب حبه لهم المرتبط بحب نفسه. بينما يشعر الدكتاتور بروح العـداء للمجتمع، وهو يعتقد ان الجميع ضده، فعليه ان يعتبر الجميع متهمـين، في ايـة لحظـة. ولهـذا فلا يشعر الدكتاتور بالراحة او المتعة في ممارسة الحكم، بسبب اشبـاح الشـك والـرعب التي تطـارده مع اشباح ضحاياه.. بينما يشعر الحاكم الفردي بمتعة عظيمة في ممارسة الحكم، تراوده أحلام عذبة فتبدو له المشكلات الكبرى يسيرة. ويملأه التفاؤل في انه قادر على انجاز المستحيل بحب الناس له او بثقته بنفسه..

ان الفـردي رجـل مزاجي، يجتهـد بانفعـال فيخطأ ويصيب، بنـوع من الطفولية. أما الدكتاتور فان شخصيته لا تخضع لمزاج، ولا تقبل التجزئة.

لهـذا تبـدو قرارات الحـاكم الفـردي متناقضة، فهو يقرر الأعتقال فيشفعه بتسريح المعتقل. ويظهر قاسياً اشد ما تكون القسوة، لكنه ينثني عن عزمه فيبدو ليناً كعـود الـرمـان. بينمـا لا يتعـرض الحاكم الديكتاتوري لمثل هذا الازدواج، وقـراراتـه تتصـاعد بوتائر واحدة فلا يخضع لاعتبارات مزاجية، او يحني رأسه لمعتقدات عامة.

ان كثيراً من الخلفاء كانوا فرديين، لكنهم لم يكونوا ديكتاتوريين.

وبتحليل شخصية عبد الكريم قاسم، يبدو لنا واضحاً، من خلال ربط ذلك بظـواهـر الحيـاة السيـاسيـة في عهده، أنه فردي، وليس ديكتاتوراً. وقد يتطور الفـردي بمـرور الـزمن الى ديكتـاتور، لكن ذلك يتطلب منه شروطاً اخرى لا نراها متكاملة في شخصية عبد الكريم قاسم.

ان عدم اتخـاذ اجـراء قمعي، او احتـراسي في المشاهد التي عشنا جوانبها، وقـد يكـون غيرنا عاش غيرها، كمهاجمة عبد الكريم في حفل المولد النبوي، ودس منـاشـير الى غرفة نرمه، وخروج مظاهرات معادية له في الاعظمية، والسماح لمغن او لقـارىء فواتـح بالأسـاءة اليـه، والتعـريض به في الحفـلات المدرسية، ونشر مقـالات تغمـزه شخصيـاً في الصحف، وتجـاوزه لما يقرا من اخبار المواليد الذين

يحملون اسماء مطلقي النار عليه، وصمته على مهاجمة انصاره في الانتخابات المهنية، والسكوت على المعتقلين الذين يشهرون به في مواقف، يشرف عليها الجيش والشرطة، وطريقته في التعامل مع المعتقلين، وتعاليه عن قراءة التقارير الكيدية، واستنكافه عن زيارة او تقريب رجال الشرطة اليه، واخذه بمبدأ الرحمة فوق القانون، وعفا الله عما سلف، والعفو عن المشتركين في اطلاق النار عليه، ظواهر وأدلة وبراهين لا تدل على روح العداء للناس ولا تحمل نوايا ارهابية.

ان فريقاً كان يتساءل بدهشة، عن السرعة التي انتهى فيها حكم عبد الكريم قاسم، فلم يستمر سوى اربع سنوات ونصف السنة؟ ويتساءل فريق آخر بدهشة كيف استمر عبد الكريم قاسم اربع سنوات ونصف؟ ولم يسقط في اقل من ذلك!..

ان التصور الذي يحمله كل فريق، انما يعكس صورة الحكم في عهد عبد الكريم قاسم، وصورته في المراحل التي اعقبته. كما يحمل شروط استمرار الحكم، وشروط سقوطه عند كل منهما.

ان الفريق الذي يستغرب من سرعة سقوط عبد الكريم قاسم، يستند الى انه كان قائداً لثورة احدثت انعطافاً في مجرى تاريخ العراق الحديث ونقلته من حالة سياسية، كان خاضعاً فيها للنفوذ الاجنبي وقواعده العسكرية، وأحلافه، الى حالة التحرر والانعتاق، وانه يحظى بتعاطف واسع بين الناس، وان انجازاته كانت على مرأى العين ومسمع الأذن. ومثل هذا الحاكم ينبغي له ان يستمر. أما الفريق الثاني، الذي يستغرب في استمرار عبد الكريم قاسم اربع سنوات ونصف في الحكم، فانه ينطلق من اعتقاده بان ديمومة الحكم ترتبط بمدى قدرته على تأسيس هيكل فولاذي، او تنظيم مسلح بالبنادق الرشاشة وبالتقارير اليومية. التي ترفع من البواب عن وزيره ومن الزوجة عن زوجها، وبمقدار ما يخصص من انفاق للاجهزة الامنية، وتدريبها على اقتحام المعارضين وعدم الأخذ بالاعتبارات الاجتماعية السائدة، والتغاضي عن الموقف الدولي من حقوق الانسان. وحيث لم يكن شيء من هذا معروفاً لدى عبد الكريم قاسم، فان استمراره اربع سنوات ونصف السنة يثير الاستغراب ويدعو الى العجب!

٦

عبد الكريم قاسم بالمنظور الشخصي

شيئـان لم يستطـع صديق لعبـد الكريم قاسم ان يكتشفهما فيه، على طول العشرة. انتسابه العشائري، وولاؤه المذهبي.

وشيئان يقودان العراق الى الكارثة منذ سنوات ولا يستطيع احد ان يوقف الانحدار اليهما انتساب الحاكم الى العشيرة، وولاؤه للطائفة.

وهـذه فرصـة مُجَّيرة لمن يكـون رئيسـاً مقبولاً للوزارة العراقية، او رئيساً مفـروضـاً على الـوزارة العـراقيـة. فقـد تهيأ لعبـد الكـريم قاسم، نشأ ة عائلية متوازنة، لا تترك لاحدى كفتي المعادلة رجحاناً على الاخرى، واذا حصل الرجحان، فان الانحيـاز لواحـدة منهمـا قد لا يحصـل، واذا حصـل الانحياز، فان التعصب المـذهبي وروح العـداء للآخـر تبقى بعيدة في الحالة التي عاش فيها عبد الكريم قاسم. لانه اذ ذاك سيتحول خصماً وعدواً ضد أبيه أو ضد أمه!

ولقـد ساعـده على حفـظ التـوازن، انـه نشأ في مدينـة محايدة، لم تشتغل بقضـايـا العـداء الطـائفي والعنصـري، وسـاعـده كذلـك على عدم التعصب العشـائـري رغبـة مبكـرة في الاستقـلال الشخصي، وثقة بالنفس قريبة مما كان يقوله المتنبي.. وبنفسي فخرت لا بجدودي. ولعل ذلك يظهر واضحاً هو الاخر منذ وقت مبكـر، حين اكتفى الطـالب عبد الكـريم قاسم، باسمـه الثنـائي دون ذكـر العشيرة او العائلة او اللقب أو أسم الجد.

وقـد شاءت الصـدف ان تكـون الايحـاءات اللغـوية لأسمه، هي الاخرى محايدة لا تثير استفزاز جهة، ولا تسيل لعاب جهة اخرى.

ولـدى ظهـور اسمـه قائـداً للثـورة، ورئيسـاً لمجلس وزراء الجمهـوريـة العـراقيـة، لم يحـاول البحث، عن حجم أكبر لأنتسابه العشائري، وحين اصطدم بخصومات عشائرية لبست ثياب السياسة، لم يظهر عليه رد الفعل. ولم تتشكل حولـه حـاشيـة من الاقـربـاء ذات تأثير على مسار الدولة. وباستثناء فاضل عباس المهداوي رئيس المحكمـة العسكـريـة الخـاصة، فلم يظهر اسم لاحد اقربائه في

سلطة ثورة ١٤ تموز، والمهداوي احد الضباط الاحرار المعروفين.

لكن الذي حدث، ان عبد الكريم قاسم بدأ يفتخر بوالده، ليس بنشر شجرة لنسب مزور أو صحيح، وليس بادعاء الامارة او الثراء، ولكن لان والده كما يقول هو حامل الفاس التي اوقعت فيه جروحاً بالغة. وهذا نمط جديد من الفخر، لم يجرؤ عليه رئيس للوزراء قبل عبد الكريم ولا بعده. ولقد نقل معه الى السلطة حياده المذهبي والعشائري ونظافته من هذه الامراض. اذ تحقق للعراقيين جو متكافؤ الفرص، فأحدث بذلك خسائر كبرى لتجارة الطائفية ولجمعياتها السرية والعلنية.

ومع انه وصل الى قيادة العراق، عن طريق ثورة، فان موقعه الجديد لم يكن طفرة كبيرة. فقد كان عبد الكريم قاسم برتبة عميد ركن مرشح لأمير لواء ركن، وهي رتبة يسمى حاملها في العرف العسكري داخل المؤسسة العسكرية (باشا). وكان في سن النضوج الكامل بعد الاربعين حين استلم مسؤولية قيادة البلد. وكان قد دخل عدداً من الدورات الاكاديمية خارج العراق، وكان من الممكن ان يصطنع لنفسه طقوساً بوروجوازية خاصة، لكن ذلك لم يحدث.

فهو اذا تحدث، شعرت بانحناءة رأسه الى الارض، واذا جلس فلا يستقيم بقامته، الى الحد الذي يظهر صدره بارزاً ولا يميل الى التفاصيل في الكلام، وكان اميل الى الحوار النفسي منه الى حوار الغير. ولم تظهر عليه عادات سلطانية.

فما زال عبد الكريم قاسم يختلس الفرصة، لتناول غدائه في بيت حامد، ويقضي القيلولة في غرفة الدرج، على هواء المروحة المنضدية، بينما يأخذ فاضل عباس المهداوي ووصفي طاهر، مكانهما فوق فراش يمد على الارض، في غرفة الاستقبال التي تشرف نوافذها على الزقاق. وفي الايام التي لا يحضر عبد الكريم لتناول غدائه في البيت، يقف سائقه بانتظار السفرطاس اليومي. تماماً كما يفعل النجار والحداد واصحاب الحرف، ممن يرسلون عمالهم لجلب الطعام من البيت. ولم تظهر عادات غذائية للرجل. وأم عدنان ظلت المسؤولة عن اخراج حصة الزعيم من قدرها اليومي. كما ظلت مسؤولة عن تنظيف ملابسه.

اما طعامه المفضل، فهو نفسه الذي كانت والدته تحدثنا عنه، يوم كان عبد

الكريم قاسم وهو طفل، يستدير بوجهه الى غرفة النوم، اذا لم يجد التمّن حاضراً في الغداء والعشاء.

لم يتزوج وكان شديد التعلق بوالدته وقد احسن الى شيخوختها كما احسن اليها قبل ذلك. ولم تجد رغبة التملك والبحث عن المال هوىً في نفسه. لقد عاش عفَّ اليد .كماعاش عفَّ اللسان، فلم يدخل في مشاجرات مع أحد، ولم يترك لأحد فرصة التعرض به منذ نعومة اظفاره.

ان شخصيته العصامية لم تتجه الى عقدة التعويض عن الخسارة السابقة، برغبة جامحة للاستحواذ على ما يمنع الاخرون منه. وكانت هذه المزيّة واضحة في سياسته الاقتصادية، حين ترك للناس فرصاً للعمل، او الحركة بل فرصاً للرفاه الذي كان محروماً منه. فلم يقف امام توفير الاحتياجات الضرورية او الكمالية، ولهذا لم يعرف العراقيون ازمة في الغذاء، اوفي المواصلات او في الحصول على مستلزمات الحضارة طيلة فترة حكمه.

تمكن عبد الكريم قاسم من اللغة العربية، نحواً وصرفاً، وأطلع على آدابها. وأحب من القدماء شعر المعري، ومن المحدثين، شعر الرصافي.

كما اتقن اللغة الانجليزية التي كانت لغته اليومية المطلوبة في المجلات والصحف التي يطالعها.

ولم يكن ميالاً نحو اقتناء ما يزيدعن حاجته من اللباس .لم يكن يدخن كما لم يكن محباً للسهرات. وكان أميل الى العزلة منه الى اقامة علاقات واسعة. وهو في علاقاته المحدودة كان رسمياً للغاية. فقد كان جدياً في اغلب الحالات، وليس له ميل لمتابعة تفاصيل الحياة الشخصية للناس بما في ذلك وزراؤه واصدقاؤه. ولا يحتفظ باحقاد شخصية قديمة ولم يتعرض احد الى ذلك في زمنه.

كان عبد الكريم قاسم ذا نزعة عراقية صرفة، وهو يفهم القضية القومية ـ كما يفهمها الاوائل ـ لغة عربية وأمة مجيدة.

وقد لوحظ في هذه الايام عودة مكثفة لشعارات عراقية، كان الشارع القومي العربي قد استهجنها وأعتبرها من سلبياته. ففي مقال نشر في جريدة الثورة العراقية اواسط تشرين الاول ١٩٨٣ أشار كاتبه وهو عضو قيادي الى أن

(العراقية عقبدة) وهذا تطور يتجاوز الحدود التي عرفت في عبد الكريم قاسم.

كان الرجل محباً لنفسه محباً للناس، وهو يعتقد ان الناس جميعاً يحبونه، وانه اذا قال قولاً صار في الناس عرفاً والتزاماً وعادة. وبهذا كان معجباً باغنية عبد الكريم كل القلوب تهواك، وكان يسأل مدير الاذاعة والتلفزيون اذا طالت الفترة بين اذاعتها كل مرة.

وخلال مدة حكمه استطاع ان يترجم ايمانه بمبدأ (الرحمة فوق القانون) ترجمة فعلية، ربما أساءت لحرمة القضاء لصالح المتهم او المحكوم في اغلب الاحيان.

ولم يكن يعرف طريقة الحكام العرب، في تخصيص جزء من عوائد النفط، لاغراض الدعاية والاعلام الشخصي له او لحكومته، مما اثار عليه تياراً ناقماً من الصحفيين العرب الذين يعيشون على ما تخصصه لهم المخابرات او وزارات الاعلام العربية من اموال ونفقات، سواء لهم ام لاغراض اصدار صحف الدعاية في الخارج. فلم يكتب عنه كتاب حتى الان. وكانت عسكريته سبباً في عدم ظهور تجاوز لمبدأ القدم او منح الرتب لغير مستحقيها. فلم تعرف في زمنه رتبة المشير والمهيب. وقد اخضع نفسه للتدرج القانوني في حمل الرتبة، حتى يوم مقتله بعد فترة وجيزة على حمله رتبة فريق ركن.

واختار عبد الكريم قاسم سنبلة القمح شعاراً للعراق، فقيل انها مجموع حروف اسمه. وسواء صح ما يقوله معارضوه ام كان ذلك جزءاً من حملة التشهير به، فان اقتران حروف اسمه بحبات السنبلة دلالة على حب الخير وحب الارض التي جعلها بمستوى حبه لنفسه ...

يبدو ان الحركة القومية ، بفصائلها وهيئاتها السياسية والاعلامية، رسمت خارطة مسبقة لمواصفات القائد الذي سيظهر في العراق، وحددت له اسماء الشوارع والازقة التي يسمح له بالمرور فيها، وصولاً الى قصر القبة، واصرت على اخضاعه لهذه الخارطة، قبل ان يظهر في ١٤ تموز وبعد ظهوره، فهي بسبب التأثير البالغ لشخصية عبد الناصر على الساحة القومية، تلتزم بان يكون الزعيم القادم ابناً من ابناء عبد الناصر، وليس له اكثر مما للابناء من صلاحيات الحركة والتصرف، في حضور والد نافذ الكلمة قوي الشكيمة، ولعلها تمادت في اعادة رسم الخطوط فوق هذه الصورة الذهنية، لان حصة عبد الناصر في الثورة ضد النظام الملكي في العراق كانت كبيرة، ليس لانه الرمز الثوري المقتدى للثوريين العرب فحسب، بل لانه كان يساهم شخصياً في عمليات التحضير الذهني للثورة، على النظام الملكي في العراق، سواء في خطاباته ذات النفاذ الشديد، ام في اجهزة اعلامه الواسعة الانتشار، ولم يسجل على عبد الناصر، انه ساوم او هادن او توقف عن مهمة اسقاط حلف بغداد، وحكومة نوري السعيد، رغم ما كان يواجه من مشكلات سياسية واقتصادية.

لقد انفق عبد الناصر من ميزانية الشعب المصري الفقير على العمل الوطني في العراق، مبالغ كان من الممكن ان يقيم فيها مصانع اضافية، او ان يبني مدناً اسكانية لمواجهة بدايات ازمة سكن في المدن المصرية، لكنه فضل مهمة اسقاط المصالح الغربية، وتحرير العراق على اية مهمة اخرى. غير ان ذلك لا يقود بالضرورة، الى ان تكون الثورة التي اسقطت تلك المصالح، او حررت شعب العراق من الاقطاع والملكية نسخة من شقيقتها المصرية، ولا يقلل من الدور العظيم لعبد الناصر ان تقوم الثورة دون توقيت صادر عن مركز قيادته او بخطة موضوعة من قبله.

يقول محسن حسين الحبيب احد ابرز الضباط الاحرار في الهيئة العليا، ومن المعروفين بمعارضته المبكرة لعبد الكريم قاسم، (ان الاتفاق كان تاماً بين اعضاء اللجنة العليا، على عدم اجراء اي اتصال مباشر، مع اي مسؤول في الجمهورية العربية المتحدة، وذلك في فترة الاعداد للثورة وعن تنفيذها ـ حقائق

عن ثورة ١٤ تموز في العراق - بيروت - دار الاندلس - ١٩٨١ صفحة ٧٢). ويعلل السيد الحبيب ذلك لسببين:

١ - ان ليس بامكان الجمهورية العربية المتحدة، ان تقدم لنا اي عون لم نكن نملكه في مرحلة الاعداد للثورة، اذ كان تحت تصرفنا العتاد والسلاح الكافيين لتنفيذ الثورة.

٢ - ان ظروف الثورة من تهيئة واعداد وتنفيذ نريدها ان تكون عراقية خالصة حتى لا يقال بان ايادي خارجية - حتى وان كانت من اخواننا في الجمهورية العربية المتحدة - هي التي كانت تحركنا او توجهنا او تضع الخطط لنا. (المصدر نفسه ص ٧٣).

وكان عبد الكريم قاسم يكرر في خطاباته فقرات بهذا المعنى لكن الحركة القومية كانت ترفض هذا التبرير وتؤكد نيابةً عن الضباط الاحرار بان الثورة (اي ثورة ١٤ تموز) تمت بالاتفاق المسبق مع الجمهورية العربية المتحدة وان الوحدة الفورية كانت من اولى الاهداف المتفق عليها. وسنناقش هذا الموضوع في فصل مستقل.

ان علاقة شخصية لم تنشأ بين عبد الكريم قاسم وجمال عبد الناصر منذ الايام الاولى للثورة مما يدل على ان الاول لم يكن معجباً بعبد الناصر، مع ان كليهما نهض مع الضباط الاحرار ضد نظام ملكي واسقطه، واقاما نظاماً جمهورياً في سنوات متقاربة وظروف توشك ان تكون كذلك.

لقد كانت شخصية عبد الكريم قاسم خلافاً لكل التوقعات حالة خاصة مختلفة الجوانب عن التصور العام او الاطار الذي رسمه الخيال القومي للزعيم القادم والمستمد من شخصية عبد الناصر. ان الزعيمين كانا يختلفان في كثير من المظاهر والحالات والتصرف والتفكير وهو امر طبيعي وسنحاول ان نستجمع نقاط الخلاف بين هاتين الشخصيتين:

١ - كان عبد الكريم قاسم برتبة زعيم ركن (عميد ركن) مرشحاً الى رتبة (امير لواء) اثناء قيامه بالثورة، بينما كان عبد الناصر برتبة مقدم. وبالنظر لما هو معروف عن عبد الكريم قاسم من التزام شديد بالاعراف العسكرية واحترام تقاليدها فلم يكن متوقعاً منه التعلق او الاعجاب بعسكري آخر أقل منه رتبة واقل منه خبرة في الشؤون العسكرية الاكاديمية.

٢ - كان عبد الكريم قاسم رئيس اللجنة العليا للضباط الاحرار، وكان

الرجل الاول في سلطة الثورة، بعد سقوط النظام الملكي، بينما كان عبد الناصر الرجل الثاني في الثورة المصرية حتى عام ١٩٥٤، حين تم ابعاد اللواء محمد نجيب عن قيادة الثورة ورئاسة الجمهورية.

٣ - رسم عبد الناصر خارطة عربية لممارسة نشاطه الثوري منذ وقت مبكر، مما جعله الزعيم الاكثر تأثيراً في الحياة السياسية للشعب العربي، ولفترة امتدت منذ عام ١٩٥٤ حتى وفاته في ايلول عام ١٩٧٠، بينما لم تكن لعبد الكريم قاسم طموحات او مشاريع للزعامة القومية. اي ان عبد الكريم قاسم كان أميل الى ادارة الشؤون المحلية، منه الى العمل القومي خلافاً لعبد الناصر الذي عرف بان له اصبعاً في اغلب الاحداث العربية.

٤ - يعتقد عبد الكريم قاسم بانه كان اكثر حسماً من جمال عبد الناصر في الساعة الثورية التي قرر فيها تصفية العائلة المالكة العراقية والغاء النظام الملكي، منذ اللحظات الاولى وبطريقة لم يستخدم فيها المماطلة او تجزئة الموقف الثوري التي استخدمتها الثورة المصرية مع الملك فاروق والنظام الملكي في ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

٥ - قامت ثورة ٢٣ يوليو وفي مصر نظام برلماني واحزاب وصحف حزبية، فقررت الثورة تعطيل النشاط البرلماني والحزبي واغلاق الصحف الحزبية، بينما قامت ثورة ١٤ تموز ولم تكن في العراق احزاب او برلمان منتخب بسبب تعطيل نوري السعيد للحياة الحزبية والبرلمانية في البلد، تمهيداً لعقد حلف بغداد في ٢٤ شباط عام ١٩٥٥، فأجاز عبد الكريم قاسم الصحف الحزبية الوطنية وشكل حكومته الاولى من زعماء الاحزاب المعروفين، او الشخصيات التي ساهمت في الحركة الوطنية فظهر عبد الكريم قاسم زعيماً لحكومة جبهة الاتحاد الوطني التي تشكلت قبل الثورة لاسقاط حكومة نوري السعيد، بينما تشكلت حكومة عبد الناصر الاولى من عسكريين وعدد من سياسيين مستقلين.

٦ - كان عبد الناصر خطيباً مؤثراً، لكنه لا يجيد قواعد الكلام العربي الفصيح! مما دفعه الى استخدام العامية في خطاباته الموجهة الى الشعب العربي، بينما لم يكن عبد الكريم خطيباً مفوهاً، لكنه كان حريصاً على الحديث بلغة عربية سليمة، نحواً، وصرفاً، وكان لا يعمد الى اللهجة العامية او لا يفضلها في احاديثه الشفوية قدر الامكان.

٧ - اعتمد عبد الناصر على جهاز واسع للمخابرات في الداخل والخارج بينما

لم يؤسس عبد الكريم جهازاً بوليسياً مماثلاً، بل ترك الامر لشرطة الامن التي ظلت تعمل بمعظم عناصرها في العهد الملكي.

٨ - تعرض كل منهما لمحاولة اغتيال وقد اعدم عدد من المتهمين في محاولة اغتيال عبد الناصر، بينهم رجال دين كبار، بينما اطلق عبد الكريم قاسم سراح الاشخاص الذين اطلقوا الرصاص عليه وتركوا في ذراعه اثراً ظل يؤذيه حتى ساعة مقتله.

٩ - اعتمد عبد الناصر على نشر مؤسسات اعلامية خارج مصر، لتأييده في معاركه المحلية والقومية، فأقيمت دور صحفية كبرى في بيروت وسواها، بينما لم يلجأ عبد الكريم الى هذا الاسلوب ولم يعرف انه ساهم بتمويل صحيفة او تقديم رشوة لصحفي.

١٠ - زار عبد الناصر بلداناً كثيرة وعقد صلات شخصية مع زعامات عالمية، وساهم بتأسيس كتلة عدم الانحياز، مما اكسبه سمعة عالمية كواحد من زعماء حركات التحرر في العالم الثالث، بينما اعتكف عبد الكريم في بغداد طيلة فترة حكمه التي استمرت اربع سنوات ونصف السنة، قضاها بعيداً عن هذا المناخ الممتاز او الملائم لنشر الزعامة على مستويات خارجية.

١١ - يعتبر عبد الناصر محرر الفلاحين المصريين من العبودية والاقطاع، كما يعتبر عبد الكريم قاسم، الزعيم الذي حرر فلاحي العراق من عبودية الاقطاع، وساهم كلاهما في توزيع الارض على الفلاحين، وقد حقق عبد الناصر نجاحاً هائلاً من خلال قانون الاصلاح الزراعي، تمثل بمضاعفة انتاجية الارض واستصلاح اراضي صحراوية وتحسين الثروة الحيوانية، بينما لم يحقق عبد الكريم قاسم نجاحاً في قانون الاصلاح الزراعي في العراق سوى تفتيت الملكية الكبيرة وتوزيع الاراضي الزراعية دون ضوابط انتاجية.

١٢ - خاض عبد الناصر معارك محلية وقومية كبرى، في تأميم قناة السويس، وفي مواجهة الدول الاستعمارية اثناء العدوان الثلاثي على مصر خريف عام ١٩٥٦، ودخل معركة بناء السد العالي، ثم حرب حزيران، وحرب اليمن، وتحمل هموم العرب في كل بقاعهم، بينما لم يخض عبد الكريم قاسم مثل هذه المعارك مفضلاً اسلوب التدرج الاصلاحي او عدم مواجهة الدول الاستعمارية بنفس طريقة عبد الناصر، فلهذا شرّع قانون رقم ٨٠ لتحرير الثروة

النفطية، ولم يلجأ الى تاميم النفط.

١٣ ـ تعرض كل من عبد الناصروعبد الكريم قاسم، الى خصومات رجال الاقطاع المحليين، وشنت ضدهما حملات اعلامية في الغرب، واثيرت ضدهما ايضاً اشاعات مختلفة، لكن احداً لم يستطع ان يسجل على عبد الناصروعبد الكريم فضائح مالية او اخلاقية، فقد حكما مصر والعراق دون بيوت دعارة، ودون ليالٍ حمراء او صفراء ودون حاشية تسرق، من وراء المكاتب ولم يخصص اي منهما لنفسه مخصصات سرية، ستاراً للنهب او اداة للقتل، ولم يتركا ارثاً لاحد بعد وفاتهما فقد مضى كل منهما الى لقاء ربه طاهر الاثواب.

عبد الكريم قاسم واحمد حسن البكر

سبب المقارنة ان أحمد حسن البكر كان رئيس الوزراء والقائد العام للقوات المسلحة بعد ٨ شباط /١٩٦٣، وهي المناصب التي كان يشغلها عبد الكريم قاسم، ولأن البكر ساهم في اسقاط حكومة ١٤ تموز، واخذ حصة تساوي ما أخذه جميع المسؤولين في حكومات العشرين سنة. اذ بلغت فترة وجوده رئيساً للوزراء ثم رئيساً للجمهورية فيما بعد حوالي اثنتي عشرة سنة، وشغل ثلاثة رؤساء جمهورية وخمسة رؤساء وزارات الفترة الباقية من العشرين سنة الاخيرة.

فكيف تسنى له الوصول الى السلطة والبقاء فيها مدة كهذه، واذا كان هذا السؤال يبعدنا عن موضوع الكتاب بمسافات طويلة تخل بمنهج البحث. فما هي مؤهلات احمد حسن البكر ومواصفاته الشخصية التي جعلته البديل لعبد الكريم قاسم والمساهم الكبير في قتله؟

لم يفكر عبد الكريم قاسم في يوم ما، ان يكون احمد حسن البكر، هو الرجل الذي سيساهم باسقاطه، ويحل مكانه في قيادة القوات المسلحة العراقية ومجلس الوزراء. ذلك ان شخصية البكر لم تكن معروفة بنشاط معين، ولم تكن تثير انتباه أحد، بسبب انطوائيته وانشغاله باهتمامات بعيدة عن ان تكون من اهتمامات رجل السياسة.

واغلب الظن ان حركة ٨ شباط، لو فشلت وقدم البكر الى المحكمة، لما كان نصيبه سوى الافراج عنه، لشعور عبد الكريم قاسم، ان رجلاً مثلا هذا لا يمكن ان يقوم بدور خطير. وقد ساد هذا الانطباع حتى بعد مرور مدة طويلة على وجود البكر على رأس القيادة العراقية.

سنحاول في النقاط التالية، ان نتلمس الفروق بين عبد الكريم قاسم وأحمد حسن البكر. والاشارة الى النقاط المشتركة بينهما في حالة وجودها.

١ ـ كان البكر برتبة زعيم مرشح الى لواء حين قاد الحركة المضادة لعبد الكريم قاسم، وله نفس الرتبة العسكرية التي كان عليها عبد الكريم حين قاد

الثورة ضد النظام الملكي.

٢ ـ كان عبـد الكـريم قاسم عسكـرياً مرموقاً، وهو يحمل شهادة الاركان، مع شهـادات أخـرى حصـل عليها من دورات خارج العراق، ودخل معارك عسكرية، وأشغل قيادات رئيسية في الجيش العراقي، منها آمر اللواء التاسع عشر.

امـا البكـر فلم يكن عسكرياً مرموقاً، ولم يحمل شهادة الأركان، ولم يدخل في دورات خارج القطـر، ولم يتبـوأ مواقـع قيـاديـة، ولم يدخل معارك حربية، وانما قضى حيـاتـه العسكـريـة في اعمـال ادارية وتموينية، الى جانب بعض المهمات العسكرية. وقد عوض عن ذلك بحمله رتبة المهيب فيما بعد.

٣ ـ كان عبد الكريم قاسم شخصية خالية من الشوائب العرقية والطائفية. بينمـا نشأ البكـر في بيئـة اقليمية محدودة الأتصال بالمجتمع، ومعروفة في العمل الطائفي منذ سنوات بعيدة. وقد انعكس ذلك على سلوك كل منهما في ادارة شؤون الدولة.

٤ ـ لم يبد البكر عناية بطقوس الحكم وعاداته البوروجوازية، اسوة بعبد الكريم قاسم، وقد ظل قروياً في ممارسة حياته الشخصية. كان اللقب الذي اطلق عليـه بانـه (ابـو الهوش) صحيحاً. فهو يرتاح الى وجوده بجانب ابقاره واغنامه اكثر مما يرتاح للاجتماعات الرسميةو بروتوكولاتها!

٥ ـ على الرغم من ذلك فقد كان كل منهما محباً للسلطة.

٦ ـ كان كل منهمـا ينظـر الى الـرئيس جمـال عبـد النـاصر بعدم ارتياح. ولا يخفيان مشاعر الكره له، سوى ان البكر كان (وحدوياً).

حدث في اعقاب مهاجمة عبد الكريم قاسم للحزب الشيوعي العراقي في تموز عام ١٩٥٩، ان ظهـرت شعـارات قومية على الجدران، تقول (عاش الزعيم العربي عبـد الكـريم قاسم) وكنت اقارن هذه التسمية (الجميلة) بتسمية الشيوعيين له بالـزعيم الأوحـد!. وكان حسين حامد قاسم (ابن اخيه) الى جانبي، وقد ظهر عليه الارتيـاح، فقلت لـه لتكتب على جدران محلتنـا، ولـدى قدوم عبـد الكريم قاسم الى البيت، وقد قرأ الشعار مكتوباً على الجدران أمامه، تقدم اليه حسين قائلاً.. شوف عمـو.. (الـزعيم العـربي) فلم يبـد عبـد الكـريم اكتـراثاً، وحين كرر عليه القول

.اجابه.. لا أحب كلام اذاعة صوت العرب! فعاد حسين لينقل لنا الحديث، لكنه لم يزل مرتاحاً للشعار!

وفي تموز من عام ١٩٦٩، ويكاد ان يكون الوقت نفسه بعد عشر سنوات! كتبت جريدة الثورة الناطقة بلسان الحزب في العراق افتتاحية. حَيَّتْ فيها ذكرى ثورة ٢٣ يوليو، وقيادة الرئيس جمال عبد الناصر، واذ كنا مجتمعين في غرفة وزير الاعلام السيد عبدالله سلوم. رن جرس الهاتف وكان المتحدث هو الرئيس احمد حسن البكر الذي فاجأ الوزير بسيل من الانتقادات الشديدة للأعلام، وكان صوته عالياً وهو يصرخ متسائلاً عن هذا (الكلب) الذي كتب افتتاحية جمال عبد الناصر، واردف ذلك بشتائم مقذعة لكاتب المقال وللرئيس جمال عبد الناصر.

وبعد مدة قصيرة ابتعد رئيس التحرير كريم شنتاف عن جريدة الثورة.

أتذكر ان عمر دبابة كان حاضر الاجتماع، (اذا لم تخني الذاكرة)، وقد ابدى استغرابه الشديد من لغة البكر، ومن موقفه ازاء عبد الناصر. وربما تشاور فيما بعد مع السيد حلمي شريف لكي تتبنى جريدتهما (النور) الناطقة بلسان السيد جلال الطالباني اخبار عبد الناصر ونشاطاته، بعد ان اختفت من صحف الحكومة.

٧ ـ لم يستخدم احمد حسن البكر طيلة فترة حكمه، حق الرأفة الممنوح له دستورياً قبيل تصديق احكام الأعدام التي كانت تتم بمراسيم جمهورية، او بصفته القائد العام للقوات المسلحة. ولم يحدث ان تردد على توقيع الاحكام والتي كانت نسبها عالية.

بينما كان عبد الكريم قاسم يتوسع في استخدام هذا الحق اعتماداً على مبدئه (الرحمة فوق القانون).

٨ ـ ظل البكر يعتقد ان عبد الكريم قاسم فردي ودكتاتور وانه لا يصلح رئيساً للوزراء بسبب حبه للتمجيد الشخصي.

سألت الرئيس البكر قبل خروجه من المسؤولية باسابيع قليلة عام / ١٩٧٩، عن سبب زياراته المستمرة واهتمامه الشخصي بالأمام الحمزة. وحين اجاب عن ذلك. قلت ولماذا اذن لا تزور وبنفس الاهتمام مراقد الائمة الآخرين؟ قال

كنت سأكون زبوناً لمراقد الأئمة، لولا مظاهر الضجيج والنفاق الذي يبديه المسؤولون عن ادارة الحضرة، والمسؤولون في ادارة المحافظة.

وضرب لي مثلاً، قائلاً.. (انه توجه مرة من زيارة الامام الحمزة الى زيارة الأمام الحسين (ع)، ولدى وصوله الى مشارف كربلاء، رأى صفاً طويلاً من السيارات وحاملي اللافتات والاعلام، فأشار الى سائقه بالاستدارة حالاً والعودة الى بغداد. بينما كان سائق الدراجة البخارية قد وصل الى الحشد.

كان البكر يسرد الحادثة حين توقف قائلاً (شنو.. قابل آني عبد الكريم قاسم... صفقة وهلاهل).

٩ ـ من المفارقات التي تساعد على كشف طبيعة حكم عبد الكريم قاسم وتعامله مع المعارضين، وحكم احمد حسن البكر وتعامله مع اصدقائه، او معارضيه. ان يحدث في زمن البكر، سواء بتوقيعه على القرار او بالسكوت عنه، اغتيال او اعدام شخصيات، كان المفروض ان يقوم عبد الكريم قاسم باغتيالها. لو انه مارس هذا النمط من العمل السياسي، او اعدامها بشكل قانوني فيما لو فشلت حركة ٨ شباط ضده. فقد تم في عهد البكر وبمسؤوليته القيادية في الحزب والسلطة اغتيال:

أ ـ فؤاد الركابي: القائد البارز في حزب البعث، وممثل الحزب في جبهة الاتحاد الوطني، وفي حكومة الثورة، وقائد محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم في تشرين الاول / ١٩٥٩ والذي اطلق عبد الكريم قاسم سراحه واغتيل في عهد البكر وهو في سجن بعقوبة.

ب ـ عبد الكريم مصطفى نصرت. القائد العسكري البارز في حزب البعث، وقائد الهجوم على وزارة الدفاع يوم ١٤ رمضان ١٩٦٣. وقد اغتيل في داره.

ج ـ حردان التكريتي: طيار قاد مجموعة طيارين في القوة الجوية العراقية ضد عبد الكريم قاسم، وكان قائد القوة الجوية بعد مقتل عبد الكريم. اغتيل في الكويت وهو من العناصر المهمة التي اوصلت البكر الى السلطة . وكان صديقه الشخصي.

د ـ رشيد مصلح الحاكم العسكري العام بعد ٨ شباط /٦٣ ، ومن ابرز

العناصر التي ساهمت في اسقاط عبد الكريم قاسم، تم اعدامه على الرغم من صداقته الشخصية للبكر واشتراكه في جميع نشاطاته.

هـ ـ مدحت الحاج سري: اعدم هو الآخر وكان من العناصر التي عملت بجدية ضد عبد الكريم قاسم بعد اعدام أخيه المرحوم رفعت الحاج سري.

فضلاً عن اعداد من اسماء الاشخاص الذين عارضوا عبد الكريم قاسم وعملوا في صفوف الحزب وعاشوا احراراً حتى اعدموا في عهد احمد حسن البكر وحكومات العشرين سنة.

١٠ ـ كان عبد الكريم قاسم يحظى بتأييد واسع لاغلبية واضحة من ابناء الشعب العراقي، بينما لم يحظ البكر بشيء من اهتمام المواطنين.

على الرغم من أن الشائع صحفياً وسياسياً، ان تشكيل خلايا داخل الجيش لأغراض الثورة، وتغيير نظام الحكم في الأقطار العربية، كان مشروعاً ناصرياً، تمثل في ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢. وان البعض قد رد على ذلك بالأستشهاد بالأنقلابات السورية التي بدأت عام ١٩٤٩ مع تحفظه حول الفرق بين هذه الانقلابات وثورة يوليو فالثابت تاريخياً ان اول مشروع عربي لتحرك ضباط الجيش باتجاه السلطة بدأ في العراق عام ١٩٣٦ وهو المسمى بانقلاب الفريق بكر صدقي الذي عين رئيساً لأركان الجيش في فترة غياب الرئيس الفعلي طه الهاشمي خارج العراق، حين زحفت وحدات من الجيش العراقي بقيادته في ليلة ٢٩ تشرين الأول يتقدمها سرب من الطائرات الى بغداد. فسقطت الحكومة وشكلت حكومة مدنية باقتراح بكر صدقي وبرئاسة حكمة سليمان وبعد خمس سنوات من ذلك التأريخ قاد العقداء الاربعة ثورة مايس ١٩٤١ فهرب الأمير عبد الأله الوصي على العرش وشكلت حكومة الدفاع الوطني برئاسة رشيد عالي الكيلاني. وهي ثاني حكومة يشكلها الجيش. ثم كانت الانقلابات السورية بعد ثماني سنوات واعقبتها ثورة يوليو بعد ثلاث سنوات. وعاد مشروع الجيش لاستلام الحكم عن طريق الثورة وتغيير النظام القائم في ١٤ تموز / ١٩٥٨. وتبع ذلك ثورات مماثلة في اليمن والسودان وليبيا والصومال وموريتانيا.

وهي وان اختلفت فانها تلتقي في فكرة واحدة هي اتفاق عدد من الضباط على تغيير الحكومة القائمة او نظام الحكم بقوة السلاح لا عن طريق الانتخاب او الثورة الشعبية المنظمة.

ان رائد فكرة اعادة تشكيل خلايا الضباط الأحرار في العراق، كان المقدم المهندس رجب عبد المجيد، وهو الذي بدأ اول اتصالات عملية ذات صفة تنظيمية بنوايا معلنة تستهدف تغيير نظام الحكم الملكي في العراق اواسط الخمسينات. ولو ان ذلك لا ينفي وجود نوايا مماثلة لدى ضباط آخرين او

مشاريع لتشكيلات مماثلة. إلا انها لم تتحول الى واقع تنظيمي محدد. الى ان تشكلت اللجنة العليا للضباط الأحرار منه ومن محي عبد الحميد ومحسن حسين الحبيب وعبد الوهاب الأمين وناجي طالب ووصفي طاهر ومحمد سبع وعبد الكريم قاسم وعبد الكريم فرحان وعبد السلام عارف ورفعت الحاج سري وصبيح علي غالب وطاهر يحيى.

وباعتقادنا فان هذه المجموعة تتوزع حسب الهدف والنموذج والمعتقد على حكومتي الجيش اللتين شكلهما عامي ١٩٣٦ و ١٩٤١. اذ يبدو واضحاً ان رجب عبد المجيد وناجي طالب وعبد السلام عارف ومحمد سبع ورفعت الحاج سري ومحسن حسين الحبيب كانوا متأثرين بحركة صلاح الدين الصباغ وشخصيته وأفكاره. وأن عبد الكريم قاسم ووصفي طاهر ومحي عبد الحميد قد وضعوا خطوات بكر صدقي أمامهم فهم أقرب منه الى صلاح الدين الصباغ ورفاقه. لا سيما ان عبد الكريم قاسم كان يترسم بخطواته في الجيش خطى قريبه محمد علي جواد الذي اغتيل مع بكر صدقي. وكما وضع بكر صدقي في انقلابه مجموعة حكمت سليمان وكامل الجادرجي وجعفر ابو التمن كان عبد الكريم قاسم بعد نجاح الثورة وحتى قبلها يمد جسور التفاهم مع هذه المجموعة. فكان مندوبه المدني الى جمال عبد الناصر حسين جميل أحد اقطاب الحزب الوطني الديمقراطي الذي يتزعمه كامل الجادرجي بينما كان مندوب الضباط الأحرار الآخرين الى عبد الناصر هو صديق شنشل أحد أقطاب حزب الاستقلال القومي. من جانب التقسيم الشخصي للضباط الأحرار نلاحظ انهم توزعوا على اتجاهين اتجاه موزون رزين يمثله محي عبد الحميد وناجي طالب ومحسن حسين الحبيب وعبد الوهاب الأمين وعبد الكريم قاسم واتجاه مغامر متشنج لا يحسب لخطواته حساباً وهو اذا كان مؤهلاً لتنفيذ عملية عسكرية فانه ليس مؤهلاً لقيادة بلد كالعراق. ومن هذه العناصر عبد السلام عارف وعبد اللطيف الدراجي ووصفي طاهر وعبد الوهاب الشواف.

ولقد احدثت هذه المجموعة مشكلات لحكومة الثورة وسببت لها مآزق ونكسات دفع ثمنها الجميع. والذي حدث لعبد الكريم قاسم فيما بعد كان

سيحدث لو أن محي عبد الحميد او ناجي طالب او محسن حسين الحبيب او رجب عبد المجيد تولى قيادة الثورة.

لم تعمل اللجنة العليا للضباط الأحرار بنظرية التنظيم الحزبي التي تضع القدم في التنظيم فوق المرتبة والمنزلة العلمية والاجتماعية والرسمية للمنتسب كأن يكون مسؤول المنظمة محصلاً في مصلحة نقل الركاب مسؤولاً عن استاذ في الجامعة وصحفي ومدير عام في وزارة التخطيط وعميد لشؤون الطلبة.

ان اللجنة العليا لم تعتمد هذه الصيغة والتزمت بالصيغ العسكرية السليمة. ولم تنظر الى عملها كهيئة مؤسسة او منظمة رئيسية تستحوذ على الآخرين لمجرد قدمها في التنظيم. انما عملت بمبدأ القدم في الجيش وهي نظرية تعاكس تماماً نظرية التنظيم الحزبي.

ان رجب عبد المجيد كان بمثابة المؤسس والقائد وأمين سر منظمة الضباط الأحرار لكنه تنحى جانباً في اول اجتماع دخل فيه ضابط أعلى منه رتبة هو محي عبد الحميد او ناجي طالب. وان وصفي طاهر كان من وجهة نظر حزبية، المسؤول عن عبد الكريم قاسم الذي فاتحه بفكرة الأنضمام لكنه لم يكن اكثر من مرافق من مرافقي عبد الكريم قاسم بعد الثورة. وحين انضم عبد الكريم قاسم الى اللجنة العليا تنحى محي عبد الحميد له عن رئاسة اللجنة احتراماً لقدمه العسكري.

ومعنى هذا ان الضباط الأحرار بدأوا عملهم على اساس اخلاقي وتنظيمي سليم.

● كلمة في الضباط الاحرار

بعد ربع قرن على ثورة تموز والضباط الأحرار بين قبرٍ دارس، ومنفي مهاجر، او مقيم في عقر داره، وبين آخر لا قبر له، وآخر مات محترقاً في الجو، وسابع قابع في متجر صغير.

صار الضباط الأحرار بعد ان اختلفوا على ما أتفقوا عليه قاتلاً وقتيلاً..

فهل حلّت عليهم لعنة فيصل ولعنة الحسين؟ كما يقول رجال المملكة

الاردنيـة الهاشمية، ويؤيدهم بعض بسطاء الناس في العراق، أم أنهم وهم كذلك خرجوا بعد ربع قرن الى عيون التاريخ بثياب بيضاء، ولسان صادق.

وبعد سلسلة اسماء وأحداث ومآسٍ ، كيف نرى الضباط الأحرار؟

ان شرط الحكم في هذه القضيـة، يتطلب عينـاً لا ساخطـة ولا راضية، وقلباً يسد منافذ الانحياز الطائفي والعشائري والحزبي، لكي لا تنفجر بسوء وتضرب عصمـة التـاريـخ. عنـدها نتلمس الاجابة الحيادية المنصفة على تساؤلاتنا تلك واصدار حكم ما، في هذه المجموعة.

١ ـ ان عبـور تنظيمـات الضبـاط الأحرار سنوات الحكم الملكي الى الثورة، يعني ان احداً منهم لم تهبط به المغريات الملكية الى ان يتحول جاسوساً للسلطة على رفاقه، مع حدوث الأختلافات بينهم. وهذا التزام اخلاقي يسجل لجميع هؤلاء الضباط.

٢ ـ استخـدموا في عملهم الأسلوب العسكري الصحيح بعيداً عن نظريات التنظيم الحزبي، فكانوا في عملهم الثوري منسجمين مع واقعهم العسكري.

٣ ـ ارتضى اغلبهم قبـول الضـرر الشخصي بعـد قيـام ثورة ١٤ تمـوز، مكتفين بقيام الثورة، فبدلاً من ان يكون رجب عبد المجيد امين سر مجلس قيادة الثورة، وعضوها البارز، كان مديراً عاماً في وزارة الاعمار. وبدلاً من ان يكون عبد الكـريم فرحـان عضـواً في مجلس القيـادة، ظل ضابطاً مقيماً على حدود العراق في منطقـة (ايـج ثري). وأرتضى وصفي طاهـر، وهـو الـذي فاتح عبد الكريم قاسم بالثـورة، ان يكـون مرافقـاً يحمل خلفه الغدارة كأي شرطي في الحماية. وأرتضى محسن حسيب الحبيب بنقله، وهـو العقيد الركن والعضو البارز في اللجنة العليا الى آمر مدفعية في بعقوبة..

وعـين محي عبـد الحميـد قائـداً لفـرقة عسكرية، وابعد صبيح علي غالب ملحقـاً عسكـرياً في انقرة. وعبد الوهاب الأمين ملحقاً عسكرياً في القاهرة، بدلاً من ان يكونوا اعضاء في مجلس قيادة الثورة الذي يشرف على السلطة التنفيذية.

٤ ـ لم تستطع الخلافات الحادة، والتي وصلت الى حد قتل بعضهم بعضاً، ان تقدم دليلاً على ارتباط ضابط من الضباط الأحرار بدولة اجنبية.

٥ ـ لم تستطع هذه الخلافات، ولا التغييرات التي اعقبتها ولا الأحزاب المختلفة، ان تقدم اثباتاً رسمياً او وثيقة، عن حدوث ابتزاز او اختلاس او قبض اموال، لا أثناء استيزار بعضهم ولا بعد خروجهم من الوزارات، ووفاة عدد منهم.

اذ شهد ربع قرن من الزمن لهؤلاء الضباط الأحرار، بانهم لم يبحثوا عن مكاسب شخصية، ولم يميلوا باتجاه الكسب الحرام، وقد تهيأت لأغلبهم فرص الثراء حين سيطروا على المراكز الرئيسية في الدولة على فترات خلال ربع القرن الماضي. فلم يترك عبد الكريم قاسم داراً على الارض التي انجز تحريرها، ومات ورصيده في مصرف الرافدين دينار واحد ومئتا فلس، اطلعت عليها شخصياً في الثالث من اذار عام ١٩٦٣، حين كانت جريدة الجماهير التي اكتب بها، معنية بالتنقيب عما يفيد في الاساءة او التشهير بعبد الكريم قاسم.

ولعله الانسان الوحيد الذي يموت فلا يخلف صحناً ولا قنينة ولا قدراً لوارث، فلم يكن يمتلك من عرض الدنيا سوى بدلته العسكرية. وكانت مقادير المال والسلطة بين يدي وصفي طاهر، فاعدم ولم يستطع عدو له او خصم، ان يقدم وثيقة او حتى شكوى لحصول ابتزاز او كسب غير مشروع. فقد سات هو الآخر ولم يترك ارثاً لأحد.

وما زال رجب عبد المجيد كما كان وهو ينظم الضباط الأحرار، وينتظر مطلع كل شهر لأستلام راتبه، فاذا غادر العراق ضاقت به ذات اليد عن البقاء طويلاً.

وعبد الوهاب الأمين، مثل محي الدين عبد الحميد، ومثل رجب عبد المجيد، وصبيح علي غالب. واعدم رفعت الحاج سري فلم يترك لأحد اكثر مما يتركه موظف لعائلته.

وليس لدينا معلومات عن عبد السلام عارف فيما يتعلق بتجاوزاته المالية، وعبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية بعد أخيه، ماذا كان لديه ساعة تسليم مفاتيح القصر لعبد الرزاق النايف؟ وماذا وجدوا في داره؟ وكيف كان وضعه المالي وهو الرئيس المنفي الى تركيا؟

لقد طلب معونة الحكومة التي أخرجته، لتصريف اموره اليومية، الى ان عاد الى منزله القديم في بغداد. واما ناجي طالب فقد ملك الدار عن أهله، ولم

يملكها عن مناصبه الوزارية. بينما ينزوي محمد سبع في متجره بالأعظمية لبيع لعب الأطفال. وماذا عند عبد الكريم فرحان في منفاه حالياً غير الشعور بالمرارة؟

بقي ان نتوقف عند طاهر يحيى، الذي كانت له مشاريع تجارية في فترات احالته على التقاعد، والذي كان رئيساً للوزراء عدة مرات.

ان اشاعات وانتقادات توجهت الى طاهر يحيى بحجم واسع ومستمر فكان يسمى (ابو فرهود) لكثرة ما نسبت اليه من سرقات واختلاسات.

غير ان وثائق رسمية او حقيقية لادانته لم تنشر. وفي هذه الحالة يظل الكلام ضده غير موثق. وهو يدخل في باب التشهير الى ان يأخذ صيغته القانونية باثبات ما كان شائعاً حوله، ولا ندري هل جرى التستر عليه ام ان احداً لم يجد لديه ما يدعو للنشر.

٦ ـ عرف معظم الضباط الأحرار بالتواضع، وقد مر ببعضهم ربع قرن، دون ان يكون معروفا لأحد فقد فضلوا الابتعاد عن الأضواء والجعجعة الأعلامية، بل لم يدافعوا عن انفسهم في أغلب الأحيان. كان ناجي طالب اذا اختلف مع ضابط صغير ادار وجهه بهدوء الى بيته، ولم يعرف رجب عبد المجيد سوى انه امين للعاصمة. ومحي عبد الحميد وزير للتربية في احسن حالاته. ولو عرض اسم صبيح علي غالب على صحفيي العراق لأنكروا وجود مثل هذا الأسم في السياسة العراقية.. ومن منهم كان سيتذكر محمد سبع؟

٧ ـ ان الضباط الاحرار لم يسفوا، رغم تدهور علاقاتهم في اي ادعاء او خصومة، بل ركنوا على الأغلب الى بيوتهم مكتفين بما قدموا. وهذا شأن الأشخاص الذين يقومون بادوار كبيرة في المجتمع. ولعل بهم شبهاً في نظرائهم الضباط الأحرار في مصر في هذا الجانب.

٨ ـ لم تسجل ضدهم (قضايا) مما يسجل على اصحاب الطفرة الوظائفية، ولو انهم في الحقيقة لم يطفروا، ولم يتحدث عنهم لسان وكانوا اذ ذاك في اعمار تساعد على ذلك، فكانوا اقرب الى التقوى والزهد، او على الاقل الى سد منافذ التشهير التي لاحقت وتلاحق عادة رجال السلطة واصحاب الثورات في العالم الثالث.

كانت علاقات عبد الكريم قاسم بقوى جبهة الاتحاد الوطني التي ترأس حكومتها في ١٤ تموز تتدهور يوماً بعد يوم.

خرج عليه حزب البعث العربي الاشتراكي اولا، وتبعه حزب الأستقلال، واختلف مع الحزب الشيوعي. ثم افترق عن الوطني الديمقراطي. وقدم الديمقراطيون المستقلون استقالاتهم من الوزارة. كما ترك الحزب الديمقراطي الكردستاني مقاعدة الوزارية. وظل الزعيم الوطني بلا جبهة وطنية. بل اخذ يتصرف وكأن نضالاً وطنياً لم يكن قائماً قبل الثورة. واذا كان قائماً قبلها، فلا حاجة لأن يستمر مع وجود الثورة التي اعتبرها عبد الكريم قاسم، البديل، لكل التراث الوطني للشعب العراقي. فاذا قامت، وقد قامت، فعلى زعماء الأحزاب الوطنية والقومية، ان يعلنوا أحزابهم للتصفية النهائية. ويلتحقوا وراء الزعيم.

ولم يكن عبد الكريم قاسم قادراً على الخروج بمعادلة اخرى، غير التي تصورها مع الثورة علماً ووجوداً واستمرارية.

ان ثورة ١٤ تموز تختلف عن ثورات المنطقة، لانها وليدة الجهد الوطني والتضحيات الكبرى للأحزاب العراقية في جبهة الاتحاد الوطني وان كل طرف في هذه الجبهة له الحق الشرعي والاخلاقي والتاريخي في الاحتفاظ بحصته في الثورة، كبرت ام صغرت هذه الحصة، تبعاً لكبر الدور وصغره، وان عملاً وطنياً مخلصاً ونزيهاً، لا يمكن ان يقوم في العراق، على حساب تجاوز الاسماء الفعالة التي قادت النضال العراقي منذ الثلاثينات. ولقد كانت فرصة ملائمة لعبد الكريم قاسم ان تنهض الثورة، مدعومة بتأييد هذه الاحزاب والزعامات الوطنية في البلد. والتي اظهرت عبد الكريم قاسم كبيراً في حجمه الوطني. وكيف لا؟ وهو زعيم الدولة والحكومة التي تضم محمد مهدي كبة ومحمد حديد وابراهيم كبة وصديق شنشل ومحمود الجومرد وهديب الحاج حمود ومحمد حسن سلمان وعبد اللطيف الشواف وناجي طالب ومحي الدين عبد الحميد. وتحظى باحترام

وتأييد الزعيم الوطني كامل الجادرجي، والزعيم الكردي الملا مصطفى البارزاني.

فاذا اختلف عبد الكريم قاسم مع حزب البعث العربي الاشتراكي وحزب الاستقلال حول قضية الوحدة الفورية. واختلف مع الحزب الشيوعي العراقي حول ما نسب اليه من دور في احداث الموصل وكركوك وتجاوزات المقاومة الشعبية. فما هو العذر الذي سيقنع الشعب العراقي في قبول خلافه مع الحزب الوطني الديمقراطي، وزعامة كامل الجادرجي؟

ان الجادرجي لا يستطيع ان يتجاوز تاريخه ومبادئه لصالح اي طرف او حكومة، ولهذا فقد اصر على تشريع دستور دائم للبلد، واجراء انتخابات نيابية حرة، تحدد شكل الحكومة. كما ابدى معارضته الشديدة لاستخدام القوة في معالجة الحقوق القومية للشعب الكردي.

ان طلاقاً حدث بين هؤلاء جميعاً وبين عبد الكريم قاسم الذي دخل بمرحلة الاستعاضة عن كل كمية بما يساويها. فاذا البدائل المستعاضة وجوه مزيفة، واسماء مجهولة اذا عرفت فقد عرفت بالانتهازية ولم تعرف بغيرها.

لقد بدأ عبد الكريم قاسم يتآكل ثورياً، ويتحول من ثوري الى ثائر، ومن ثائر الى رئيس وزراء الجمهورية العراقية. بينما الثورة حجمه الحقيقي، وبيئته المناسبة. وهي البقاء والديمومة. وهي الكمية التي لا يمكن الاستعاضة عنها، لأنها ترتبط بأهلها ارتباط الاصابع بالكف. ومما يؤسف له ان تجري عمليات الاستبدال على قدم وساق، خلال السنتين الاخيرتين من حكم عبد الكريم قاسم ببدائل متهرئة.

لقد استبدل جريدة الأهالي، وهي مدرسة وطنية متكاملة بجريدة العهد الجديد.

واستبدل الجواهري بطه الفياض، والرأي العام بالفجر الجديد.

استبدل سلام عادل وزكي خيري ونوري ابو العيس وعبد القادر اسماعيل، بداود الصايغ، واتحاد الشعب، بجريدة (المبدأ) واستبدل لواء الاستقلال جريدة (الثورة) وعبد الجبار وهبي بعبد الرزاق البارح. واستبدل البارزاني باسم ما.

لقد باعهم جميعا بلا ثمن، بيع الحليم بانه لا يربح، كما يقول الشريف الرضي.

وكان هو الطرف الخاسر او الضعيف في معادلة الصراع السياسي، بعد هذه المقايضة الخاسرة. اذ انفرد به خصومه المسلحون بنظريات تنظيمية متماسكة بينما لم يكن له تنظيم مماثل.

كان خصومه مؤمنين متحدين لاسقاطه وكان رجال البدل المعزول غير مؤمنين وغير متحدين في الدفاع عنه.

كان خصومه، احزاباً تحت راية القبيلة. وسياسيين تحت قبة المذهب. ولم يكن يعتمد هو على قبيلة او مذهب. كانوا شجعاناً في الدفاع عن معتقداتهم ولم يمتلك عبد الكريم قاسم رجالًا شجعاناً في الدفاع عن معتقداته. بعد ان انسلخت او انسلخ عن الأحزاب والزعامات الوطنية.



انحراف ام خلاف

كان الحـادي عشـر من ايلول عام ١٩٥٨ الذي تقرر فيه ابعاد الرجل الثاني في سلطـة الثـورة عن منـاصبه القيادية والوزارية متوقعاً بعد سلسلة الاجتهادات التي اتهم العقيد عبد السلام عارف بتظهيرها في خطابات ارتجالية خلال جولاته في الوية القطر بعد نجاح الثورة مباشرة.

لم يكن عبـد السـلام عارف شأنـه شأن اغلب العسكـريـين يمتلك الادوات الخطابية المطلوبة وكانت ثقافته العامة وخبرته السياسية الناشئة لا تساعدانه على الأحاديث الطويلة التي انشغلت بها موجات الاذاعة العراقية.

وقد لا يكون بعيداً ان الدبلوماسيين العرب والاجانب ابرقوا الى حكوماتهم توقعـاتهم الاسبـوعيـة حول اقتـراب انفجـار الـرجـل الصامت في وزارة الدفاع لاسكات صوت حليفه ونائبه في الوزارة والقوات المسلحة.

كان المفروض بالسياسيين المحترفين او الوحدويين المحيطين بعبد السلام عارف بذل جهد لمحاولة تقنين احاديثه وجدولة طروحاته لا سيما ان وزير الارشاد في تلك الحكـومـة والـذي يتحمـل مسـؤوليتـه في هذا الخطأ كان من السياسيين المتمـرسـين في حزب الاستقـلال وكـان بامكانه ان يبرمج او يكبح من عنفوان عبد السلام عارف بطريقة او اخرى. لكن الذي يبدو انهم تركوه يموت خطيبا كما ترك عبد الكريم قاسم فيما بعد، والذي ظل صامتاً الى ان اسكت عبد السلام فاستعاد دوره في تكـرار الخطـابات مع وجود الفوارق الكبيرة بين حديث كل منهما سواء في تعبير المقاسات السياسية ام في اتجاه الاحاديث.

يبـدو ان نجـاح عبد السلام عارف الباهر في تنفيذ الثورة كان مفاجأة لعبد السـلام نفسـه فأختلت موازينـه ذلـك الاختلال الفاضح لقد نجح الرجل في قتل الملك والأمير والحاشية واعلن بصوته في الاذاعة سقوط الملكية وقيام الجمهورية الاولى لاول مرة في العـراق منـذ (٤٠٠٠) سنـة، وهو انجاز اسطوري يسجل لهذا الضـابـط الشجـاع، لكن المشكلة ان عبـد السـلام تصـور كمـا يتصـور كثير من

العسكريين ان بامكان قاتل الملك ان يكون ملكاً.

يقول شكسبير.. ليس المهم ان تكون ملكاً بل المهم ان تكون آمناً.. وهذا الذي حدث، لقد فقد عبد السلام عارف مناصبه القيادية في الثورة وابعد سفيراً في بون فوجد الشارع الشيوعي في هذا الابعاد نصراً مؤزراً يستحق الاهازيج والهتاف والترانيم الشعبية.. رايح سفير البون عندي وصيّة. لكن الامركان لو تحكم الشيوعيون باعصابهم قليلاً نصراً للضباط الاحرار الذين ضاقوا بعبد السلام في اجتماعات الهيئة العليا قبل الثورة، فترك آخر اجتماع له معهم قائلاً في حدة (هذا حدنا وياكم) على رواية محسن الحبيب (المصدر نفسه ص ٩١).

كان عبد الكريم قاسم حليف عبد السلام في تلك الاجتماعات، حتى اذا أزفت فرصة الثورة، استأثر معه بموعد التنفيذ. يقول الضباط الاحرار ان استئثار عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بتنفيذ الثورة دون الرجوع اليهم، انما كان مقدمة لاستئثارهما بالسلطة. مع ان الثورة، لو فشلت، فان رؤوسهم ستتدحرج تحت اقدام الأمير عبد الأله. فليس خلاف الضباط مع عبد الكريم ومجموعته كان بسبب ابعاده لعبد السلام كما هو شائع ومعروف في الاوساط العامة.

انهم يرون ان عبد السلام اتفق مع صاحبه على ابعادهم عن مواقع السلطة، مشردين بين ملحق عسكري وموظف مدني وضابط مدفعية، وقائد منهم ثبتت اقدامه في الصحراء قريباً من الحدود الاردنية.

والضباط الاحرار، كما كتبوا في مذكراتهم، يجمعون على أن فكرة القائد العام ونائب القائد العام للقوات المسلحة، كانت مرفوضة منذ ان عرضت عليهم قبل الثورة، وهم يتساءلون: اذا كان لعبد الكريم حق في ان يكون قائداً عاماً، لأنه رئيس اللجنة العليا للضباط الاحرار، فما هو حق صاحبه في المنصب الثاني، علماً ان لعبد الكريم قاسم نائبين هما محي عبد الحميد وناجي طالب، كانا يترأسان الجلسة في غيابه؟..

يلاحظ ان الخلاف حتى الان ما زال تنظيمياً لم يرتد حلّة العقيدة التي لبسها فيما بعد حين اتهم عبد الكريم قاسم بالأنحراف عن الثورة، ونكوصه عن تنفيذ الهدف المنتظر، وقيام الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة.

لقد استيقظ الناس في العراق على اصوات تصرخ (وحدة وحدة فورية).
واجتمعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي اول مرة بعد ثورة ١٤ تموز، فاتخذت قراراً برفع شعار الاتحاد الفدرالي.

الآن وقد مضى ربع قرن مشحون باحزان الثوار، يتفصد فيه جبين السنين بدم الشرفاء، هل لنا ان نسترجع المسامع الى راديو بغداد، ونقلب الابصار في الوقائع العراقية، باحثين عما انجز من اهداف ومالم ينجز.

ان أحداً حزباً كان ام حركة، ضابطاً حراً أم سياسياً وحدوياً لم ينشر في منشور ـ على كثرة المناشير في تلك الفترة ـ او أذاع في صوت العرب التي تزدحم ساعاتها الليلية، ببرامج النقد المرير لقاسم المنحرف عن الاهداف.. نصّاً ما، حول اهداف الثورة لنتلمس ما تم، وما لم يتم، ولنتعرف على مواقع اقدام عبد الكريم قاسم وهي تخطو بعيداً او قريباً عن مواقع الأهداف الثورية لثورة ١٤ تموز.

ان التاريخ على عكس صانعيه شاهد من شهود الحق، وقد مضت ٢٣ سنة على الثورة، قبل ان يكتب محسن حسين الحبيب شهادته، في كتابه الذي كررنا الاشارة اليه وسنكررها، لأنها شهادة شاهد عيان، ولأنه معارض شديد من معارضي عبد الكريم قاسم.

لنترك محسن حسين الحبيب يسرد الأهداف التي اتفق الضباط الاحرار على تحقيقها بعد نجاح الثورة. وهو بصدد مهاجمة عبد الكريم قاسم، وليس بمعرض الدفاع عنه!..

(ان مبادىء الثورة واهدافها حددت في اكثر من اجتماع، ونوقشت طويلاً، وانها إن لم تكن واضحة للبعض، فلأننا لم ندونها على الورقة لنحتفظ بها للمستقبل، تمشياً مع قرارنا بعدم تسجيل مناقشاتنا وقراراتنا على الورق. وحتى يمكن تطبيق تلك المبادىء ووضعها موضع التنفيذ، فلا بد من ترجمتها الى اهداف محددة..

١ ـ الغاء النظام الملكي واقامة النظام الجمهوري

٢ ـ القضاء على الاقطاع وتوزيع الاراضي على الفلاحين.

٣ ـ استرداد حقوق العراق النفطية وتضييق مجال عمل شركات النفط

الاجنبية واقامة صناعة نفطية.

٤ ـ الخروج من منطقة الاسترليني وتحرير الاقتصاد العراقي من التبعية البريطانية.

٥ ـ تحقيق الوحدة الوطنية وايجاد حل عادل للقضية الكردية.

٦ ـ اطلاق سراح السجناء السياسيين كافة. واطلاق الحريات العامة.

٧ ـ تضييق الفوارق بين الطبقات، وفتح المجال لجميع الكفاءات والمواهب وتأمين العدالة الاجتماعية.

٨ ـ الخروج من الاتحاد الهاشمي.

٩ ـ التقارب الوثيق مع الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية المتحررة الاخرى، ومساندة الاقطار العربية التي لا زالت تسعى لنيل استقلالها.

١٠ ـ اسناد الشعب الفلسطيني بكل الامكانات المتيسرة لاستعادة ارضه وحريته.

١١ ـ الوحدة العربية هدف مصيري يجب السعي لتحقيقها. الا اذا تعرض العراق لغزو خارجي يستهدف اعادة النظام الملكي، حينئذ يمكن المناداة بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة!..

١٢ ـ الخروج من حلف بغداد.

١٣ ـ ازالة السيطرة البريطانية على القواعد العسكرية في العراق وجعلها تحت السيطرة الكاملة للجيش العراقي.

١٤ ـ اتباع سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز.

١٥ ـ اقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع الدول الاشتراكية.

١٦ ـ سياسة العراق الخارجية وعلاقاته تبنى على اساس الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة.

١٧ ـ تأليف مجلس قيادة الثورة من اعضاء اللجنة العليا، ويقوم المجلس بمهام السلطة التشريعية حتى اجراء انتخابات نيابية.

١٨ ـ تشكل حكومة مدنية من رجال السياسة المعروفين بكفاءاتهم ومواقفهم الوطنية. وكان النقاش يدور.. هل سنشترك في هذه الحكومة ام تكون كلها من

المدنيين؟ وكانت الآراء متباينة لكن الاتجاه، هو تأليفها او أغلبها من المدنيين.

١٩ ـ تحديد فترة انتقالية يشرع بعدها الدستور الدائم وتجرى انتخابات نيابية لانتخاب برلمان جديد يحدد على أثرها شكل الحكومة.

٢٠ ـ اما عن رئاسة الجمهورية فلا أتذكر انه كان يدور نقاش حولها، لأننا آثرنا الابتعاد عن الدخول في تحديد اشخاص معينين، وما يثيره ذلك من حساسيات. خاصة اننا ما زلنا في فترة التهيؤ والاعداد لتثبيت خطة تنفيذ الثورة.

اخيراً جاءت فكرة مجلس السيادة كحل وقتي الى ان تستقر الامور وتتضح الاتجاهات بعد ذلك. (المصدر نفسه ص ٥٨،٥٩،٦٠،٦١).

الاهداف المنجزة

ما هو مقياس التقييم لتثبيت درجة الأختبار المدرسي الذي يطالب به عبد الكريم قاسم، هل تعتبر نسب المتحقق المئوية هي نفسها ٥٠٪ للعابر، وأقل منها للساقط، ولو ان قيادياً كعبد الكريم قاسم، لم تسعفه القدرة على الأداء الكامل لأكثر من نصف الاهداف، هل كان يصح وصمه بالأنحراف؟ أم أنه سيتهم بما هو اخف، كعدم الجدارة او الأهمال، اما ان يكون منحرفاً، فهو قرار صادر من مجامع الأضغان كما يقول الشعراء، وليس عن شعور كامل بالمسؤولية في اطلاق هكذا احكاماً..

لنعد الى الأهداف التي سطرتها ذاكرة الحبيب حول الأمانة الثورية لعبد الكريم قاسم لنرى اذا كان الرجل منحرفاً بالثورة عن اهدافها؟ ام كان مختلفاً مع رفاقه.

الهدف الاول:

الغاء النظام الملكي واقامة النظام الجمهوري، تم انجازه في الساعة الخامسة الا خمس دقائق من فجر يوم الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ .

الهدف الثاني:

القضاء على الاقطاع وتوزيع الاراضي على الفلاحين.

تم انجازه باصدار قانون الاصلاح الزراعي، يوم ٣٠ أيلول / ١٩٥٨. واعتبر نافذ المفعول من تاريخه. وقد تحرر بهذا القانون ٩٢٪ من المشتغلين بالزراعة الذين لم يكونوا يمتلكون شبراً واحداً من الأرض. وكان اقل من ٢,٥ بالمائة من المالكين يملكون ٩١٪ من الاراضي الزراعية. ويتصرف بعضهم باكثر من (٢٥٠) ألف دونم، وبلغت اقطاعيات بعض شيوخ العشائر نصف مليون دونم. والغت حكومة عبد الكريم قاسم نظام دعاوى العشائر فأنهت ازدواجية القانون الذي كان المواطنون في العراق يخضعون اليه.

الهدف الثالث:

استرداد حقوق العراق النفطية.

شكل عبد الكريم قاسم وفداً لمفاوضة شركات النفط ـ بعد مرور شهر واحد على قيام الثورة. وهي مدة قياسية في تاريخ الثورات المماثلة، واستمرت المفاوضات منذ آب/١٩٥٨ حتى عام ١٩٦١ ، حين اصدرت حكومة الثورة القانون رقم ٨٠، الذي استعاد العراق بموجبه ٩٩,٥٪ من الاراضي الممنوحة لشركات النفط والتي لم تستثمرها. وتم عقد اتفاقيات جديدة مع شركات اخرى للتنقيب عن النفط واستخراجه، كما اسست شركة النفط الوطنية وأنشىء قطاع نفطي وطني.

ان كثيراً من المراقبين السياسيين توقعوا نهاية سريعة لحكومة الثورة، بعد

اصدار هذا القانون الذي سبب خسائر جسيمة، لحاملي اسهم شركة نفط العراق، من الفرنسيين والبريطانيين والهولنديين والأمريكان.

الهدف الرابع:

الخروج من منطقة الاسترليني.

اصدرت حكومة الثورة قرارها بانسحاب العراق من منطقة الاسترليني، يوم ٤ حزيران ١٩٥٩، وتم تحويل موجودات العراق الاسترلينية، وعوائده المقبلة من النفط، الى الذهب والعملات الاجنبية الاخرى. فأحدث ذلك هزة كبرى في اسواق لندن المالية وسبب احراجاً مبكراً للأسترليني بين العملات الاخرى فتمتع الدينار العراقي بشخصية مستقلة او بتعبير عبد الكريم نفسه (حرة متحررة).

الهدف الخامس:

تحقيق الوحدة الوطنية وايجاد حل عادل للقضية الكردية. لم ينجز هذا الهدف. فقد انفرطت علاقة التفاهم بين عبد الكريم قاسم والملا مصطفى البارزاني، والتي بدأت في الايام الاولى للثورة قوية، بعد صدور تشريع خاص للعفو عن قادة الحركة الكردية، وعودتهم مع المقاتلين من المنفى الى العراق، واستقبالهم استقبال الابطال، لكن هذا الشكل المظهري ليس اكثر من اعلان تجاري مكتوب بالحروف الضوئية. فلم يتقدم عبد الكريم قاسم باي مشروع حل للقضية الكردية التي اتخذها تبريراً يومياً في الرد على دعاة الوحدة العربية. وتضمن البيان الاول للثورة فقرة واضحة حول بناء الوحدة الوطنية على اسس صحيحة، والذي يبدو ان هذه الأسس الصحيحة، اصبحت تعني لدى عبد الكريم قاسم ، نداءه في آب من عام ١٩٦١، (الكل وراء الزعيم) وكانت مذكرات قيادة الحركة الكردية تتوالى، على وزارة الدفاع دون رد مقنع، الا اذا كان نداؤه، الكل وراء الزعيم، هو الحل

الـذي يعتقـده صحيحـاً لبنـاء اسس الـوحـدة الوطنية. مما دفع الملا مصطفى البـارزاني الى اعـلان الثـورة المسلحـة في كردستان، وسط تأييد وطني، ظهر على شكل كتابات على جدران المنازل في المناطق كافة.. (السلم في كردستان).

ارسـل وفـد عسكـري عراقي بعـد الثـورة مباشرة الى الجمهورية العربية المتحـدة، يتألف من ١٧ ضابطـاً يمثلون مختلف صفـوف الجيش، ولـدى عودته واجتماعه بعبد الكريم قاسم في مكتبه، واذا لم يمضِ على حديث رئيس الوفد الا بضـع دقـائق، نادى عبـد الكـريم قاسم على سكرتيره وطلب منه احضار رزمة من الاوراق فاذا هي ورقـة طويلة على شكـل اسطـوانـة غطت المـائـدة بطولها فقال: (اتـرون هذه أمـامكم؟ انها تحمل تواقيع زعماء الاكراد وشيوخ عشائرهم تأييداً للثورة.. انهم كلهم مؤيدون لنا).

يقـول رئيس الـوفـد، انـه لم يفهم ما العلاقة بين مهمته وبين تأييد شيوخ الاكـراد للثـورة؟ ان رئيس الـوفـد فاتـه ان يربـط بين الموضوعين، لقد قطع عبد الكـريم قاسم الطـريق عليـه للحـديث عن اي مشـروع وحـدوي. لان الشعب العراقي يتشكل من قوميتين هما العربية والكردية وان الزعيم لا يريد ان يضحي بتأييـد الاكـراد للثورة. فماذا قدم للقضية الكردية من حل؟ وهل يكفي الاكراد ان يبتعد الحكم عن الوحدة العربية لكي يكون قريباً منهم؟ ان عبد الكريم قاسم كان يعتقـد بذلـك اعتقـاداً حقيقياً. وهو لا يدري انه جعل من القضية الكردية، لافتة سيـاسيـة في مواجهة قضية الوحدة العربية لا غير. ان الحقوق القومية للاكراد، والتي كثر الحديث عنها بعد ثورة ١٤ تموز، لم تتجسد في قرار او تشريع او بيان، ولو على غرار بيان الاستاذ عبد الرحمن البزاز. وقد ذهب عبد الكريم قاسم الى ابعد من هذا، حين حاول الـتـكتم على اخبـار العمليـات العسكـريـة التي حدثت في كردسـتـان، بين الجيش العـراقي وقـوات الأكـراد بقيـادة البـارزاني. فلم يسمح بالحـديث عنهـا، او جعـل القضيـة الكـرديـة موضوعاً في جدول اجتماع مجلس الـوزراء او اي اجتمـاع آخـر. غيرانـه لم يجـد صعـوبة في الحصول على ناطق بالكـرديـة، ليكون وزيراً ممثلاً للاكراد في وزارة خدمية، كما هي العادة الجارية في

الحكومات العراقية المتعاقبة والتي تعتقد انها تحل أو حلت هذه المشكلة بتعيين احد المتفاهمين وزيراً للاسكان او للشؤون الاجتماعية او نائباً للرئيس. متجاهلة الثقل الحقيقي والمركزي لهذه المسألة وتشعباتها والمتمثل في قيادة البارزاني والحزب الديمقراطي الكردستاني قبل وبعد ان يتوزع الى احزاب وحركات متعددة.

الهدف السادس:

اطلاق سراح السجناء السياسيين.

حررت الثورة جميع السجناء والموقوفين والمعتقلين، من الوطنيين العراقيين والقوميين ومن مناضلي الحركة الكردية، الذين زج بهم النظام الملكي في السجون. وقد اعيدت الحقوق المدنية لجميعهم بلا استثناء، كما اعيدت الجنسية العراقية للمنزوعة عنهم بسبب معارضتهم لذلك النظام. وفتح الثورة الفرص واسعة امام المنفيين والمغتربين لأن يعودوا الى وطنهم فكانت وفية لالتزامها هذا.

الهدف السابع:

تضييق الفوارق بين الطبقات.

ان هذا الهدف عام وعائم وعريض حين يطلق بدون تحديد اتجاه مساره الأيديولوجي. ان هدفاً مثل هذا لا يتحقق الا عن طريق تغيير جذري شامل في العلاقات الاجتماعية السائدة والاستناد، الى نظرية قادرة على تحرير العمال والفلاحين والكسبة، وتضييق الفرص على الطبقات المالكة في الحقول الزراعية والعقارية والصناعية وفي القطاعات الوسيطة وغير ذلك.

ان حكومة الثورة لم ترفع شعاراً اشتراكياً او منهجاً كهذا. وظلت محافظة

على طابعها البورجوازي الوطني، الا انها انجزت مهامها ضمن هذه المرحلة بنجاح مرّة وبتعثر مرة اخرى. لقد شرعت الثورة نظاماً ضرائبياً جديداً اكدت فيه على ضريبة الميراث التي لم تكن معروفة في العهد الملكي البائد وكانت معروفة في مصر منذ عام ١٩٤٤ وفي لبنان منذ عام ١٩٥١ وفي سورية منذ عام ١٩٥٢. كما ساعد قانون الاصلاح الزراعي على تضييق الفوارق بين الطبقات، الى جانب قوانين ضريبة الدخل التصاعدية، وتحقيق فرص العمل لجميع الكفاءات والمواهب بنوع من الحياد الطائفي السياسي والعنصري، فكان عهد عبد الكريم قاسم ملتزماً بتكافؤ الفرص واحترام الكفاءات بغض النظر عن انتماءاتها الطائفية، ففي ذلك العهد تولى رئاسة الجامعة عالم صابئي وتوزعت العمادات في الكليات على الاساتذة القديرين دون عملية نبش في ملفاتهم المذهبية. ولم تظهر طيلة حكمه حالة مما اصبح مألوفاً بعد مقتله من حالات السيادة العشائرية والعنصرية لقرية او ناحية على مقدرات البلد. وكانت شؤون ادارة موظفي الدولة تجري بوتائر متوازنة خالية من شوائب التكتلات المذهبية والعنصرية في اجهزة الدولة، ولم يكن لمسؤول فيها ان يستجمع حوله عدداً من ابناء العمومة والخؤولة الأمر الذي منح فرصاً واسعة امام كثيرين لكي يتقدموا خطوات الى الأمام دون كارت العشيرة او المذهب.

الهدف الثامن:

الخروج من الاتحاد الهاشمي

على الرغم من ان قيام الثورة، وحده كان بياناً رسمياً غير معلن، بسقوط دولة الاتحاد الهاشمي التي شكلتها الدوائر البريطانية في ١٤ شباط عام ١٩٥٨، من العراق والاردن فان حكومة الثورة اصدرت بياناً خاصاً في ٢٢ تموز / ١٩٥٨ حول خروج العراق من الاتحاد الهاشمي واعتبار جميع الاجراءات والتشريعات التي تمت بموجبه باطلاً.

كمـا تعتبر الحكومة نفسها في حل من جميع الالتزامات المالية والعسكرية.

ان هذا البيـان كان بمثـابة ثغرة كبيرة احدثها العراق في الجدار العازل الذي بني حول الجمهـوريـة العـربيـة المتحـدة ممـا اضعف النفوذ البريطاني في المنطقة وحصر خارطة التآمر ضد المد الثوري العربي بمناطق التبعية في الاردن والمحميات.

ان عبـد الكـريم قاسم يضع هذا البيان او الموقف في اطار التزاماته القومية ازاء الجمهورية العربية المتحدة فضلاً عن الجانب المحلي، مما يسهل لنا الدخول في الهدف التالي.

الهدف التاسع:

التقـارب الـوثيق مع الجمهـوريـة العـربيـة المتحـدة والـدول العربية المتحررة ومساندة الاقطار العربية التي لا زالت تسعى لنيل استقلالها.

اعتقد ان كثيرين معنا سيفاجأون بهذا الهدف المتواضع في المعايير القومية السـائـدة آنـذاك لكن المفـاجئة ستكون اكبر حين يعلن احد الضباط الاحرار من معارضي عبد الكريم قاسم عن وجود اتفاق بالتقارب وليس بالوحدة ومن اي نوع ودرجـة. فالـذي كان سائـداً في اعرافنا ومستبداً بمشاعر الوحدويين ما كان يردده القيـاديـون والأحـزاب والشخصيـات القـومية حول تلكؤ عبد الكريم قاسم عن القيـام بالتـزاماته القومية ازاء قضية الوحدة. ولم يكن معروفاً ان الأتفاق محدد سلفاً باطار التقارب.

وفي هذا الاطـار تم انجـاز اتفـاقيـة التكامل الاقتصادي والتجاري والفني واتفـاقيـة التعـاون العسكـري مع الجمهورية العربية المتحدة وميثاق الوحدة الثقـافيـة العربية. اما بصدد علاقات الثورة بالدول العربية المتحررة ومساندة حركـات التحـرر العربي فقد خصصت حكومة عبد الكريم قاسم مساعدات مالية للثورة الجزائرية ، وامدت المجاهدين العمانيين بالمال والسلاح.

الهدف العاشر:

اسناد قضية الشعب الفلسطيني

ان حماس عبد الكريم قاسم للقضية الفلسطينية لم يكن للاستهلاك المحلي المعروف في حماس السياسيين المحترفين. فلم يكن مرشحاً حزبياً او مستقلاً يتقدم ببرنامجه الانتخابي، ولم يكن يسعى لأرضاء المنظمات الفلسطينية في وقت لم تكن قائمة فيه. انما كان في حماسه لفلسطين يعبر عن واقع حاله، حين كانت معارك الجيش العراقي ضد العصابات الصهيونية، وكان عبد الكريم قاسم قائداً لأحد الأفواج المقاتلة والتي أبلت بلاءً حسناً في كفر قاسم. فعرف اسمه هناك معرفة المقاتل للمقاتل.. وتأتي بعد ذلك محاولات عبد الكريم قاسم لأسناد القضية الفلسطينية طبيعية في هذا السياق، ولعله أول مسؤول عربي يطالب بتأسيس منظمة فلسطينية عسكرية تنهض باعمال فدائية بدعم من كافة الأقطار العربية. وقد اتخذ خطوات تنفيذية من جانبه حين تعهد بتدريب الفلسطينيين في المعاهد والمعسكرات التابعة للجيش العراقي.

،بهدف الحادي عشر:

الوحدة العربية هدف مصيري يجب السعي لتحقيقها على مراحل. الا إذا تعرض العراق الى غزو خارجي يستهدف اعادة النظام الملكي، حيث يمكن المناداة بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة.

وهذه مفاجئة ثانية أشد وقعاً من مفاجئة الأعلان عن الأتفاق بين الضباط الاحرار، على سياسة (التقارب فقط)، مع العربية المتحدة. ففي هذا الهدف او الأتفاق اكتشاف خطير لكنه جاء متأخراً، لموضوع كان السبب المباشر لجميع المشكلات التي واجهت ثورة ١٤ تموز، والقوى السياسية الوطنية والقومية.

ان الحركة القومية بكل فصائلها رفعت شعار الوحدة الفورية كحد

السيف، وجعلت مطلبها الوحدوي مقياس صحة، او أنحراف الحكم الثوري الجديد، ولم تكن مستعدة لكي تستمع الى رأي آخر، كالقبول بالوحدة في وقت آخر، أو الاتحاد الفدرالي الذي طرحه الحزب الشيوعي العراقي، والذي اعتبرته الاوساط القومية تجاوزاً على المرحلة، وتطرف آخرون فوصفوه بالشعوبية، انهم وضعوا الوحدة الفورية سكيناً على رقبة عبد الكريم لا بديل لها الا الموت الفوري له، أو قبول موتهم طائعين معلقين على اعمدة الكهرباء، ولعلهم كانوا مخلصين مع أنفسهم.. انهم يؤمنون بحدية مطلقة فالعالم امامهم قسمان متضادان لا لقاء بينهما.. عالم عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة حيث الثورة القومية في مواجهة الاستعمار والصهيونية، وعالم العمالة المعادي للثورة العربية والوحدة العربية، والذي كان يتزعمه نوري السعيد، فلم يستطيعوا أن يتصوروا وجود طرف مختلف مع عبد الناصر، دون ان يكون من العالم الآخر، ولهذا لا يكون سهلاً وصف اصحاب هذا الاتجاه في تصديهم لعبد الكريم قاسم بانهم طابور خامس، أو عملاء شركات النفط او متحالفون مع الرجعية، فهم انفسهم ينظرون الى الطرف الآخر، بانه ـ كذلك ـ طابور خامس عميل لشركات النفط!.

ان عبد الكريم قاسم، حسب ما جاء في هذه الفقرات التي وردت على لسان ابرز معارضيه القوميين من الضباط الأحرار، لم يكن طرفاً في هذا الخلاف العقائدي، ولا ينبغي اعتباره متخلفاً عن تحقيق هدف لم يتفق عليه، بل جرى الاتفاق على عدم المناداة بالوحدة الفورية، الا اذا تعرض العراق لخطر اعادة الملكية، وهو شرط نفعي ذرائعي لا ندري كيف ارتضى به الضباط الاحرار وهم في اغلبيتهم قوميون وحدويون.

لقد تعاملوا وهذا الشرط مع الوحدة على انها حاجة امنية طارئة وليست هدفاً استراتيجياً للأمة. وتصرفوا مع الجمهورية العربية وقيادة عبد الناصر كرجال السوق، فإذا سارت الأمور كما أرادوا، فالمناداة بالوحدة الفورية حرام، واذا تعرضوا الى انتكاسة، حللوا ما حرّموه!! وعلى جمال عبد الناصر ان يقتطع المزيد من جهد ودماء المصريين لأعادة النظام الجمهوري الى العراق من خلال الوحدة الفورية التي كان سيطالب بها الضباط الأحرار وهم في المعسكر المهزوم.

ان عبـد الكـريم قاسم كان صامتاً ازاء شعاري الوحدة الفورية او الاتحاد الفـدرالي، وكـان بامكـانـه ان يحسم الموقف باعلان ما أتفق عليه في اللجنة العليا للضبـاط الاحـرار، ولـو انه استعان بمكاتب الاعلان لكتابة هذا الهدف على لوحة مجـاورة لتلك التي كانت تحمـل نص البيان الأول للثورة في ساحة التحرير، لوفر لنفسه وللثورة، جهداً ولحقن دماء الذين سقطوا قتلى الوحدة الفورية، وكان عبد الكـريم نفسـه واحداً من هؤلاء القتلى، لكنه لم يستعن بهذه الوثيقة او الشهادة، لأنها تقوده الى الأعتراف بوجود الضباط الأحرار، وهو أمر يثير فيه الهلع.

ولـو تسلح الضبـاط الأحـرار القـوميـون بشيء من الموضوعية، لتعهدوا اعلان هذا الأتفاق، وحسموا الموقف كما تمليه الأمانة التاريخية. لكنهم وجدوا في تبني الوحدة الفورية مكسباً جيداً يحقق لهم احراج عبد الكريم قاسم، فضلاً عن ظهـورهم بمظهـر عقـائدي قوي لكسب الجمهورية العربية المتحدة. وهم الذين اعتبروا الوحدة مراحل ومنعوا المناداة بالوحدة الفورية ما دام العراق بخير؟!

الهدف الثاني عشر:

الخروج من حلف بغداد

كما طرحت الوحدة الفورية شعاراً حاداً لأحراج عبد الكريم قاسم، والثورة في أيـامهـا الأولى، طرح فيمـا بعـد شعـار الخروج الفوري من حلف بغداد الذي انتهى مفعوله عملياً في اللحظات التي تمزق فيها جسدا ا لأمير عبد الأله ونوري السعيـد. غير ان عبـد الكريم قاسم تصرف ازاء هذا الموضو ع، بمهارة ومرونة لم تعرف عنه. فآثر التريث في اعلان خروجه الرسمي من حلف بغداد الاستعماري، حتى يوم ٢٤ آذار من عام ١٩٥٩، لضمـان اعتـراف جميع الدول بحكومة الثورة. بمـا فيهـا دول الحلف ومحـاولة الاستفادة من احد بنوده، لكسب اسلحة جديدة للجيش العراقي قبل اعلان الانسحاب الرسمي.

ان حلف بغداد حالة تدهور سحيق في التفكير والممارسة السياسية لنوري

السعيد، فقد تحدى فيه نضالاً عراقياً مريراً ابتدأ منذ عام ١٩٣٠ لاسقاط اي ارتباط للعراق مع بريطانيا، فسقط شهداء الجسر ١٩٤٨، كما سقط شهداء انتفاضة تشرين ١٩٥٢، وانتفاضة عام ١٩٥٦، ثمناً للمطالبة بانهاء معاهدة ١٩٣٠، ومعاهدة بورتسموت عام ١٩٤٨، التي لم يكتب لها النجاح، لكن نوري السعيد عاد في عصر تهاوت فيه المعاهدات والتحالفات مع الاستعمار العالمي الى عام ١٩٣٠، حيث بدأ خطواته القيادية بالتوقيع على المعاهدة العراقية البريطانية.

ان حكومة عبد الكريم قاسم اسقطت حلف بغداد فتوجت ٤٠ سنة من الكفاح الوطني بالنجاح، وانتصر فعل الجهود الوطنية منذ ان شكل ياسين الهاشمي وجعفر ابو التمن، حزب الاخاء الوطني الذي رفع اسقاط المعاهدة في اول بند من بنود (وثيقة التآخي) التي وقعها الزعيمان في تشرين عام ١٩٣٠. ومروراًبكل بيانات الاحزاب والصحف الوطنية. ولم تسقط المعاهدة وبديلتها الجائرة الا بعد ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ وبتوقيع عبد الكريم قاسم.

الهدف الثالث عشر:

ازالة القواعد البريطانية

اقامت بريطانيا اثناء احتلالها للعراق قاعدتين عسكريتين في الشعيبة قرب البصرة وفي منطقة الحبانية بلواء الرمادي، وقد حفظت المعاهدات والأتفاقات التي عقدتها بريطانيا مع العراق، حقها باستمرار هذه القواعد، على الرغم من معارضة الشعب العراقي واحزابه الوطنية لوجود قواعد عسكرية اجنبية على اراضيه..

ان منشوراً او بياناً لحزب وطني في العراق، لم يغفل الأشارة الى الشعيبة والحبانية على الأطلاق. ولم تتحرك الحكومات الملكية، ولو للدخول بمفاوضات حول مصير هذه القواعد، حتى يوم ١٤ تموز، اذ قررت حكومة الثورة الغاء

الأتفاق العراقي البريطاني، وجميع ملاحقه السرية. وهو الأتفاق الذي حل محل معاهدة ١٩٣٠، وتم الالغاء بدون مفاوضات، وبدون شروط، فحمل الجنود البريطانيون امتعتهم، وعيونهم شاخصة على تلك الأحياء الجميلة التي بنيت لسكنى عوائلهم. مخلفين وراءهم اصدقاءهم شيوخ العشائر المتحالفة وابنائهم الذين كان لهم دور بارز في مواجهة حكومة الثورة.

والغت حكومة الثورة ايضاً الاتفاقية المعقودة مع الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تضمنت المساعدات العسكرية والاقتصادية للعراق ما بين ١٩٥٤/١٩٥٧.

وبهذا اكتملت جوانب الاستقلال الوطني للدولة العراقية وتحريرها من القواعد العسكرية والأتفاقات والمعاهدات والأحلاف التي كانت تربط مصير العراق بحركة اقدام الاستعمار البريطاني والأمريكي. وقد تم ذلك في عهد عبد الكريم قاسم وبتوقيعه!.

الهدف الرابع عشر:

اقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع الدول الاشتراكية

كان نوري السعيد، خلافاً لجميع الدول المحسوبة على المعسكر الغربي، قد قطع علاقاته مع الدول الأشتراكية، والاتحاد السوفيتي بشكل خاص، فأعيدت العلاقات الدبلوماسية بين العراق والدول الأشتراكية بعد أيام قليلة من قيام ثورة ١٤ تموز.

ان علاقات حكومة الثورة بالأتحاد السوفيتي والمجموعة الاشتراكية كانت متميزة، فقد رافق تبادل السفراء، عقد اتفاقيات تجارية واقتصادية وسياحية وثقافية وعسكرية، مع بلدان هذه المجموعة. وكان من ابرزها اتفاقية التعاون الاقتصادي والفني مع الاتحاد السوفيتي، والتي تم بموجبها اقراض العراق

(٥٥٠) مليـون روبـل، لتمـويـل مشـاريعه الزراعية والصناعية والخدمية. وقد تحـول العـراق الى الاتحاد السوفيتي، لتسليح قواته العسكرية المسلحة، وقطع صلاته بمصادر السلاح الغربي. وفي عهد عبد الكريم قاسم تم هذا التحول الكبير.

الهدف الخامس عشر:

سيـاسـة العـراق الخـارجيـة وعـلاقـاته تبنى على اساس الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة

ان هذا الهدف كان برنامجاً للدبلوماسية العراقية بعد ١٤ تموز حيث خرج العـراق من حلف بغـداد، ومنطقة الاسترليني، والغى المعاهدات والاتفاقات غير المتكـافئـة مع الـدول الاستعمارية، مما اكسبه سمعة طيبة بين الدول المستقلة، فاقيمت علاقاته مع تلك الدول على اساس الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة.

الهدف السادس عشر:

تاليف مجلس قيادة الثورة

كان الأتفاق ان يتشكل مجلس لقيادة الثورة من الضباط الأحرار، في اللجنة العليـا، للقيـام بمهـام السلطـة التشـريعيـة، بعـد نجـاح الثورة، لحين اجراء انتخابات بعد استكمال الشكل الدستوري للدولة، الا أن عبد الكريم قاسم وكما يقـول الضبـاط الأحـرار قد ادار ظهـره عن هذا الهدف بالأشتراك مع عبد السلام عارف، الذي اعلن قبيل ابعاده بمدة قليلة، عن قرب تشكيل مجلس قيادة الثورة، وهو اعلان للاستهلاك المحلي بعد ان شعر بتأزم موقفه وضعفه في السلطة.

ولـو أن عبـد الكـريم قاسم استجاب لهذا الهدف، لضخ في حكمه مقداراً من

القـوة والمنعـة، ولأبعـد عن نفسـه وعن ثورة تمـوز، الوقوع في الكثير من المزالق والمخاطر. ولربما امتد به الأجل الى ابعد من ٨ شباط ١٩٦٣.

ويذكر ان اعضاء اللجنة العليا للضباط الأحرار الذين كان سيتشكل منهم مجلس قيادة الثورة هم كل من:-

عبد الكريم قاسم
محي عبد الحميد
ناجي طالب
عبد الوهاب الأمين
محسن حسين الحبيب
رجب عبد المجيد
طاهر يحيى
وصفي طاهر
عبد السلام عارف
عبد الرحمن عارف
عبد الكريم فرحان
صبيح علي غالب
رفعت الحاج سري
محمد سبع

يقـول محمـد سبـع في حديث خاص مع كاتب السطـور، اثنـاء اللقـاءات اليـوميـة معـه في محله بالاعظميـة مقابل كلية العلوم (محلات عائشة). ان عبد السلام عارف كان اكثر حماساً من عبد الكريم قاسم، لتفتيت اللجنة العليا، وعدم تشكيل مجلس لقيادة الثورة. ويضيف ان عبد السلام اعطى لعبد الكريم الضوء الأخضر لأجراء تنقلات عاجلة وتشتيت شمل اغلب الضباط الأحرار.

الهدف السابع عشر:

تشكيل حكومة مدنية

قلنا في مكان آخر ان عبد الكريم قاسم، شكل حكومته الأولى من شخصيات وطنية، ساهمت في قيادة جبهة الاتحاد الوطني التي تشكلت في عام ١٩٥٧ لمواجهة حكومة نوري السعيد وتحالفاتها.

اختار عبد الكريم قاسم وزراءه ممن عرفوا بالنضال الوطني والخبرة والنزاهة في أول فرصة وآخر فرصة للعراقيين بحكومة جبهوية من ذلك النمط القدير خلال تاريخ العراق الحديث. وقد ساهم فيها الحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الديمقراطي الكردستاني، والماركسيون المستقلون وعدد من الديمقراطيين بالأضافة الى عدد من الضباط الأحرار.

وبهذا فقد أوفى بالتزامه وقدم تجربة ديمقراطية رائدة.

الهدف الثامن عشر:

سياسة الحياد الايجابي وعدم الانحياز

احتل العراق مقعده في كتلة عدم الأنحياز، منذ قيام النظام الجمهوري فيه، واعلان خروجه من حلف بغداد، وقد كسبت هذه الكتلة بانضمام العراق، قوة كبيرة ليس بسبب ثقله المادي والنضالي فحسب، بل لأنه انسلخ من ارتباطاته بالمعسكر الغربي الذي كان يشكل قاعدة أساسية من قواعده في العالم الثالث. غير أن عبد الكريم قاسم لم يستطع ان يحقق لنفسه حضوراً[٨] بارزاً في كتلة عدم الأنحياز بسبب وجود زعماء تاريخيين للحركة كتيتو ونهرو وعبد الناصر وسوكارنو. ولأنه اعتكف في عاصمة حكمه ولم ينفتح على العالم الخارجي.

وفي تلك الفترة تعرض مفهوم الحياد الايجابي الى خلط عجيب، فالشارع القومي، وبدافع من ردود فعله ضد سياسة الحزب الشيوعي العراقي، كان يلوح الى أن الحياد الايجابي معادلة بين معسكري الصراع العالمي. وقد ظهرت كتابات في الصحف القومية تطرفت بعضها في القول ان كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي لص يتحين الفرص لسرقة بيوتنا.

أما الشارع الشيوعي فقد، وجه انتقادات عنيفة الى هذا (الفهم المشوه) لمعنى الحياد. وطرح مشروعاً للمناقشة أمام الرأي العام حول ضرورة رسم السياسة الخارجية على أساس عقائدي.

كتبت جريدة صوت الأحرار الموالية للحزب الشيوعي العراقي في عددها الصادر بتأريخ ١٩٥٩/٨/٤، مقالاً جاء فيه «اننا أمام طريقين لا ثالث لهما، ومن ادعى بغير ذلك فهو دجال ومخالف للحقيقة. اما أن نطلب الحرية والأستقلال وقضية الحرية في العالم واحدة لا ثاني لها، فنربط بلدنا وأنفسنا بمعسكر الحرية بالدول الاشتراكية والدول المتحررة والطبقة العاملة وأحزابها، واما أن نلتحق بمعسكر الاستعمار والعبودية عندما نريد العمل لوحدنا.

وتبنت جريدة الفجر الجديدة مشروعاً لوحدة الفصائل السياسية كافة تحت شعار (يا اعداء الشيوعية اتحدوا)، ولوحت الى ضرورة الاستعانة باية قوة لمواجهة الشيوعين والاتحاد السوفيتي، وهو تمهيد واضح للاستعانة بالمعسكر الغربي وحلفائه،

وقد جاءت هذه الدعوة في سلسلة اعداد الجريدة الصادرة صيف عام ١٩٦٠

ان معارضي عبد الكريم قاسم .يتهمونه بالأرتماء في احضان الاتحاد السوفيتي مما يخل بسياسة الحياد الايجابي، وهو اتهام - ان صح - فسيكون من ايجابيات عبد الكريم قاسم البارزة. فقد اظهرت السنوات التالية لحكمه ان معاداة الاتحاد السوفياتي لم تكسب للعرب سوى الهزيمة.

ان الاتحاد السوفيتي الذي كان يتابع بقلق وحذر تطورات الصراع السياسي في العراق بعد ثورة ١٤ تموز لم يكن متطابقاً مع الحزب الشيوعي

العراقي وطروحاته. وكان يحاول كبح اندفاعاته، واتخاذ سياسة اكثر مرونة لا تضع عبد الكريم قاسم في مأزق.

الهدف التاسع عشر:

تحديد فترة انتقالية يشرَّع بعدها الدستور الدائم تجري انتخابات نيابية يحدد على اثرها شكل الحكومة

لم يباشر بوضع خطة او برنامج محدد لانتخابات برلمانية في العراق، على الرغم من ان مبنى البرلمان الجديد الذي شرع ببنائه في العهد الملكي قد انتهى العمل فيه، وافتتحه الزعيم عبد الكريم قاسم بعد ان اطلق عليه اسم المجلس الوطني.

ان محاولات جرت لتشكيل هيئة من كبار رجال القانون لوضع مسودة دستور دائم للبلاد، لكن تراكم الاحداث، وعدم وجود نية خالصة بهذا الاتجاه، فضلا عن عدم استقرار الاوضاع، حال دون وضع دستور دائم للبلاد واجراء انتخابات نيابية فيه.

الهدف العشرون:

تشكيل مجلس سيادة يقوم مقام رئيس الجمهورية اثناء فترة الانتقال

اختار عبد الكريم قاسم ثلاثة من ابرز الشخصيات العراقية لهذا المجلس، وكان موفقاً في اختياره بمثل توفيقه في اختيار التشكيلة الوزارية الاولى.

تالف مجلس السيادة من:

١ - الفريق الركن محمد نجيب الربيعي رئيساً. وهو عسكري يحظى باحترام الجيش العراقي بما عرف عنه من زهد ونزاهة.

٢ ـ محمد مهدي كبة، زعيم وطني كبير ورئيس حزب الاستقلال، ومجاهد معروف ضد السياسة الاستعمارية.

٣ ـ خالد النقشبندي، شخصية كردية معروفة بالنزاهة والاستقامة.

ان هذا التشكيل يكشف عن قدرة عبد الكريم قاسم في فهم الموازنات الاجتماعية والسياسية في العراق.

الاهداف غير المنجزة

الاهداف كما اخذت عن السيد محسن حسين الحبيب بلغت عشرين هدفاً، اجصينا المنجز منها فكان سبعة عشر هدفاً، وتخلف عبد الكريم قاسم عن انجاز ثلاثة اهداف. هي:

١ ـ الهدف الخامس، المتعلق بعدم انجاز حل للقضية الكردية، يستهدف تحقيق الوحدة الوطنية على اسس سليمة.

٢ ـ الهدف السادس عشر المتعلق بتشكيل مجلس لقيادة الثورة من اعضاء اللجنة العليا للضباط الاحرار يقوم مقام السلطة التشريعية.

٣ ـ الهدف التاسع عشر المتعلق بتحديد فترة انتقالية يشرع بعدها الدستور الدائم، واجراء انتخابات نيابية يحدد على ضوئها شكل الحكومة.

وبنفس اللغة الاحصائية يتبين ان عبد الكريم قاسم انجز ٨٥ بالمائة من مجموع الاهداف المحددة في اجتماعات الضباط الاحرار، عدا ما تم انجازه في مجالات التنمية القومية وقطاع الخدمات، واصدار تشريعات تقدمية في مجالات

اجتماعية محافظة، ومحاولته تطهير الجهاز الحكومي الذي عرف بالفساد والرشوة والمحسوبية.

من هنا يبدو الحكم على عبد الكريم قاسم بانحرافه عن الثورة قاسياً وغير عادل.

والأفضل ان يسمى خلافاً بين الضباط الاحرار، وصراعاً بين الاحزاب والقوى السياسية، سعياً وراء ما يمكن ان يحققه كل طرف من مكاسب سياسية.

ان بامكان مؤيدي عبد الكريم قاسم كما بإمكان الباحث المحايد، ان يقدم عرضاً منطقياً او ذرائعياً، للأسباب التي حالت دون تحقيق ما تبقى من اهداف غير منجزة، كاضطراب الحياة السياسية، او قصر الفترة التي اشغل فيها رئاسة الوزارة وقيادة القوات المسلحة او لظروف دولية ومحلية معروفة.

لكننا آثرنا عدم الأصطفاف مع هذا الاتجاه، واعتبار عبد الكريم قاسم متوقفاً عند هذا الحد، اي حصوله على تحقيق نسب انجاز ٨٥٪ من الاهداف. وتحميله ايضاً مسؤولية عدم انجاز الوحدة العربية مع الجمهورية العربية المتحدة، على الرغم من انها لم تكن مما اتفق عليه كما اسلفنا. وعدم اجازته للأحزاب والحركات القومية بالعمل العلني في الساحة العراقية، مع التذكير بعراقيته المكثفة والتي اعتبرت نزوعاً اقليمياً مرفوضاً في الأعراف القومية.



حكومات العشرين سنة
وبقية الاهداف

اتيح للضباط الاحرار في اللجنة العليا، ممن لم يشتركوا في حكومة عبد الكريم قاسم، وللضباط الاحرار في اللجنة الاحتياطية، ان يتناوبوا على حكم العراق ابتداء من يوم ٨ شباط عام ١٩٦٣ كما اتيح لأغلب الاحزاب والحركات والشخصيات القومية، ان تجد طريقها الى رئاسة الجمهورية او مجلس الوزراء، او قيادة المفاصل الرئيسية في الجيش والحكومة، وفي الاتحادات العمالية والمهنية والنقابية، واعتبرت معارضة عبد الكريم قاسم، والنضال لاسقاطه المعيار الاساسي لقياس درجة اخلاص وصلاحية اي قيادي او وزير او مسؤول، وقبوله عضواً في ادارة الدولة العراقية وان اختلفت الحكومات المتعاقبة فيما عدا ذلك.

وقد يكون صحيحاً ان كلمة المناضل استخدمت في العشرين سنة الاخيرة، وصفاً خاصاً بمعارضي عبد الكريم قاسم. وكان الحزب الشيوعي العراقي يصر على استخدام هذا الوصف خاصاً بالوطنيين العراقيين من معارضي النظام الملكي وحكوماته المتعاقبة.

وهذه قائمة من الذاكرة لعدم توفر مصادر باسماء الضباط الاحرار، ورجال الاحزاب والحركات والشخصيات القومية، والعناصر التي دخلت في (معركة المصير الواحد) ضد عبد الكريم قاسم. فقد توزعت الحكومات والقيادات على هؤلاء الوحدويين، فشملت الاسماء اللامعة من المعارضين الاوائل لعبد الكريم قاسم في اللجنة العليا كما شملت عناصر من الدرجات الدنيا والمغمورة ممن سجلت حصتها عن طريق كتابة رأي ضد حكومة قاسم، أو التوكل امام المحاكم دفاعاً عن موقوف، وكانت مساهمات البعض لا تعدو التبرع لواحد من الاحزاب او الحركات السياسية فاعتبر من المتعاطفين معها، فضلاً عن الترشيح بمبدأ القرابة وقد حصر ايضاً بحصول شرط العداء لعبد الكريم قاسم في القريب المرشح / بفتح الشين. والمرشح (كسرها).

ان آسماً ساهم في مهاجمة عبد الكريم قاسم، بالرصاص وبالكتابة او المال، من الوحدويين العرب، لم يبتعد بعد مقتل قاسم عن كرسي وزاري او قيادي،الا عدداً بعدد الأصابع سنأتي على اسمائهم بعد عرض هذه القائمة:

١ ـ عبد السلام محمد عارف. رئيس جمهورية منذ ٨ شباط / ٦٣ حتى مقتله في حادث طائرة يوم ١٤ نيسان / ١٩٦٦.

٢ ـ عبد الرحمن عارف. رئيس جمهورية من ١٤ نيسان / ١٩٦٦ حتى ١٧ تموز عام / ١٩٦٨.

٣ ـ احمد حسن البكر. رئيس وزراء حكومة ٨ شباط ورئيس جمهورية من ١٧ تموز / ٦٨ حتى ١٦ تموز / ١٩٧٩.

٤ ـ صدام حسين: نائب رئيس مجلس قيادة الثورة طيلة حكم احمد حسن البكر ورئيس جمهورية من ١٦ تموز ٧٩ وحتى اليوم وهو من المشتركين في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم.

٥ ـ طاهر يحيى: رئيس وزراء بعد ١٨ تشرين الثاني عام / ١٩٦٣ ولأكثر من مرة حتى يوم ١٧ تموز عام / ١٩٦٨.

٦ ـ عبد الرحمن البزاز: رئيس وزراء في عهدي كل من عبد السلام عارف وشقيقه عبد الرحمن عارف، وهو من رجال القانون والكتاب الوحدويين الذين عارضوا عبد الكريم قاسم.

٧ ـ ناجي طالب: من الضباط الاحرار في اللجنة العليا. وزير لاكثر من مرة، ورئيس للوزراء في عهد عبد الرحمن عارف.

٨ ـ عارف عبد الرزاق: رئيس وزراء وحدوي وطيار سابق معارض لعبد الكريم قاسم.

٩ ـ محسن حسين الحبيب: وزير

١٠ ـ عبد الكريم فرحان: وزير

١١ ـ عبد العزيز العقيلي: وزير

١٢ ـ شاكر محمود شكري: وزير

١٣ ـ صبحي عبد الحميد : وزير

١٤ ـ رجب عبد المجيد: امين عاصمة ووزير

١٥ ـ جاسم العزاوي : وزير

١٦ ـ عبد الستار عبد اللطيف: وزير

١٧ صالح مهدي عماش: نائب رئيس جمهورية، ووزير

١٨ ـ حردان عبّد الغفار التكريتي: نائب رئيس جمهورية، ووزير

١٩ ـ خالد مكي الهاشمي: وزير

٢٠ ـ فؤاد الركابي: وزير

٢١ ـ علي صالح السعدي: نائب رئيس وزراء

٢٢ ـ طالب حسين الشبيب: وزير

٢٣ ـ حميد خلخال: وزير

٢٤ ـ حازم جواد: وزير

٢٥ ـ رشيد مصلح: حاكم عسكري عام ووزير

٢٦ ـ عبد الغني الراوي: وزير

٢٧ ـ عبد الهادي الراوي: وزير

٢٨ ـ مسارع الراوي: وزير

٢٩ ـ محمد عمار الراوي: وزير

٣٠ ـ سعد عبد الباقي الراوي: وزير

٣١ ـ ناجح الراوي: وزير

٣٢ ـ ذياب العلكاوي: وزير

٣٣ ـ حماد شهادب: وزير

٣٤ ـ غالب مولود مخلص: وزير

٣٥ ـ عبد الفتاح الياسين: وزير

٣٦ ـ برهان الدين عبد الرحمن: وزير

٣٧ ـ صلاح عمر العلي: وزير

٣٨ ـ عدنان خير الله طلفاح: وزير

٣٩ ـ خير الله طلفاح: شخصية متنفذة

٤٠ ـ خليل ابراهيم حسين: وزير

٤١ ـ ابراهيم عبد الرحمن: وزير

٤٢ ـ احمد الحبوبي: وزير

٤٣ ـ شفيق الدراجي: امين عام مجلس قيادة الثورة.

٤٤ ـ شفيق الكمالي: وزير

٤٥ ـ عبد الله سلوم السامرائي: وزير

٤٦ ـ عبد الخالق السامرائي: قيادي

٤٧ ـ شامل السامرائي: وزير

٤٨ ـ صبحي السامرائي: وزير

٤٩ ـ احمد السامرائي: وزير

٥٠ ـ عبد الله فاضل السامرائي: وزير

٥١ ـ شاذل طاقة: وزير

٥٢ ـ محمد فاضل: قيادي

٥٣ ـ عصام عبد علي: وزير

٥٤ ـ عبد الرحمن الحبيب: وزير

٥٥ ـ محمد ناصر: وزير

٥٦ ـ كريم شنتاف العاني: وزير

٥٧ ـ تايه عبد الكريم العاني: وزير

٥٨ ـ رياض ابراهيم حسين العاني: وزير

٥٩ ـ مجيد سعيد العاني: وزير

٦٠ ـ طاهر توفيق العاني: وزير

٦١ ـ عزة مصطفى العاني: وزير

٦٢ ـ حامد العاني: مدير امن عام

٦٣ ـ خير الدين حسيب: وزير

٦٤ ـ اديب الجادر: وزير

٦٥ ـ عزيز الحافظ: وزير

٦٦ ـ عبد الرزاق محي الدين: وزير

٦٧ ـ حسن ثامر: وزير

٦٨ ـ سعدي عريم: وزير

٦٩ ـ انور الحديثي: وزير

٧٠ ـ نوري فيصل الحديثي:وزير

٧١ ـ مرتضى الحديثي: وزير

٧٢ ـ عبد المجيد الجميلي: وزير

٧٣ ـ محمد عايش: وزير

٧٤ ـ عبد الستار علي الحسين: وزير

٧٥ ـ ياسين خليل: وزير

٧٦ ـ اسماعيل خير الله: وزير

٧٧ ـ سعدون حمادي: وزير

٧٨ ـ محي الشمّري: قيادي

٧٩ ـ عدنان الحمداني: وزير

٨٠ ـ غانم عبد الجليل: وزير

٨١ ـ محمد محجوب: وزير

٨٢ ـ عزة الدوري: نائب رئيس مجلس قيادة الثورة

٨٣ ـ طه الجزراوي: نائب رئيس مجلس وزراء.

٨٤ ـ طارق عزيز: نائب رئيس مجلس وزراء

٨٥ ـ حكمة العزاوي: قيادي ووزير

٨٦ ـ جعفر قاسم حمودي: قيادي

٨٧ ـ سعد قاسم حمودي: وزير

٨٨ ـ ناظم كزار: مدير امن عام

٨٩ ـ رشيد محسن: مدير امن عام

٩٠ ـ محمد فاضل: قيادي.

٩١ ـ حمودي مهدي: رئيس اركان الجيش

٩٢ ـ عبد الرحمن القيسي: وزير

٩٣ ـ مالك دوهان الحسن: وزير

٩٤ ـ عبد الرحمن الحبيب: وزير

٩٥ ـ دريد الدملوجي: وزير

٩٦ ـ حسن العامري: وزير

٩٧ ـ هشام الشاوي : وزير

٩٨ ـ منذر الشاوي : وزير

٩٩ ـ محمد المشاط : وزير

١٠٠ ـ حسين الصافي : وزير

١٠١ ـ ناصر الحاني : وزير

١٠٢ ـ عبد الكريم الشيخلي : وزير

١٠٣ ـ احمد عبد الستار الجواري : وزير

١٠٤ ـ سعاد خليل البستاني : وزيرة.

وبالاجمال فان معارضاً لعبد الكريم قاسم لم يفقد حقه في السلطة خلال حكومات العشرين سنة، فضلاً عن اعداد اخرى كمدراء الشرطة ورؤساء النقابات ووكلاء الوزارات والصحافيين والشعراء.

يلاحظ من تسلسل الحكومات الوحدوية غياب قلّة قليلة ممن عرفت أسماؤهم في النشاط الفعال ضد عبد الكريم قاسم كخالد علي الصالح وأياد سعيد ثابت وكانا من اشجع الاسماء التي ظهرت في تلك الفترة على شاشة التلفزيون اثناء محاكمة المشتركين في محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم. وكان متوقعاً ـ في سياق التفكير السائد والذي اعتمدته تلك الحكومات ـ مساهمتهما في حمل المسؤولية الوزارية. وكانت الاوساط العامة تتوقع ـ ضمن هذا السياق ايضاً ـ ظهور اسم يسرى سعيد ثابت وزيرة في واحدة من تلك الحكومات للسبب نفسه.

وغـاب عن المسـؤوليـة الأمامية كذلك صبيح علي غالب ومحمد سبع. وكلاهما من الضباط الأحرار الذين عارضوا عبد الكريم قاسم، فأختفى الأول، وركن الثاني الى محله التجاري بعد فترة قصيرة قضاها مديراً عاماً للخطوط الجوية.

ولم يظهر كذلك اسم الدكتور شاكر مصطفى سليم وهو من الكتاب القوميين الذين عرفوا في تلك الفترة بمقالاته الساخرة.

وبـاستثنـاء هذه الأسماء واخرى قليلة لم تسعفنا الذاكرة بالأشارة اليها. فان معارضي عبد-الكريم قاسم الوحدويين، من العسكريين والمدنيين والحزبيين والمستقلين، اخـذوا مواقعهم في قيـادة العـراق خلال عشـرين عامـاً. وهي فرصة جليلة، لتـرجمـة المبـادىء القـوميـة الى واقع ملموس. لا سيما ان نقطة التفاهم المشتـركـة بين الجميـع، كانت تدور حول انحـراف عبد الكريم قاسم عن الوحدة العربية واهداف الثورة. وقد تمت التغييرات تحت مظلة تصحيح مسار ثورة ١٤ تموز.

ان تنـاوب اربعـة رؤسـاء جمهـوريـة وحـدويين، دون فترات انقطاع غير وحـدويـة، لمدة عشرين سنـة الى جانب خمسة رؤساء وزراء وحدويين متطرفين وثمـانـين وزيـراً وحـدوياً تدعمهم تنظيمات ومؤسسات واجهزة وحدوية حالة لا تتكرر في التـاريـخ بسهولـة، ولا نظنها ستتكرر وان كانت ما زالت قائمة لظهور وحدة عربية لا سيما ان عبد الناصر كان ما زال حيّا الى اواخر عام ١٩٧٠ واستمر نائبـه انـور السـادات في الحكم تحت الشعـار الـوحدوي خمس سنوات قبل ان يتـوجـه الى اسرائيـل لعقـد معاهدة الصلح والأعتراف بها، لكننا لم نتلمس أثراً ليس للوحـدة الفـورية فحسب، بل لوحدة ربع القرن او وحدة المراحل. فاذا كان عبـد الكـريـم قاسم قد وصف بالأنحـراف عن الـوحـدة وقتل بهذا الذنب وهو غير وحدوي ولا سبق له ان وضع الوحدة هدفاً في مقدمة الأهداف او في مؤخرتها. وهو فردي عاش في السلطـة وحـده. فمـاذا يصـح القـول في اربعـة رؤساء جمهورية وحـدويـين، استمـر احدهم أحد عشر عاماً في السلطة وأمامه على الجدار تنتصب الوحدة في مقدمة الأهداف.

واذا كان عسـيراً على قادة الـوحـدة، وهم للمـرة الثـالثـة اربعـة رؤسـاء

جمهـوريـة وخمسـة رؤسـاء وزراء وثمـانـون وزيـراً وعشرون عاماً متواصلة، الوصول الى هذا الهدف الذي لم يكن لهم هدف يعلو عليه، كما يبدو، أو يشغلهم عنه. فلماذا يشهّر بعبد الكريم قاسم وليس له في الحكم عشرون عاماً؟ فضلاً عن انشغالـه في مدة حكمـه القصـيرة، بمـواجهة حلف بغداد وامتداداته، وشركات النفط وألاعيبها، وقضيـة الأقطـاع ومهمات تصفيته بكل متعلقاته الاجتماعية والاقتصـاديـة والفنية، وتصفية القواعد العسكرية، وتحرير الدينار العراقي من سطوة الاسترليني، وتسليح الجيش والقوات المسلحة بالسلاح السوفيتي بعد قطع علاقاته بالسلاح الغربي. وهي قضايا لم تكن تشغل حكومات معارضيه. فقد استلموا العراق من عبد الكريم قاسم وهو مستقل ومتحرر.

ونستطيع ان نفهم من خلال ذلك الجو وبعد ربع قرن على ثورة تموز، عبد الكـريم قاسم فهمـاً أفضـل. فقد مدّ الرجل نفوذه الوطني الى زوايا معتمة فغمرها بنـور لا يسخـو به التـاريخ بكثرة. وعاد عبد الكريم قاسم موضوعاً، بقدر ما قسا عليـه الاعـلام العربي أو حاول حجبه عن الأمة، فانه يقفز الى الذاكرة بين مزدحم الصور في مسرح الموت والهزيمة والتشرد والجوع وفقدان الطمأنينة.

وعـلى كل حال فقـد اعدم عبد الكريم قاسم بعد أن انجز بحسابات خصومه ٨٥ بالمئـة ممـا وضـع من أهداف محددة غير تلك التي افاض بها على العراق وترك ثلاثـة اهـداف لتلك المجـاميـع المـدججة بالنجوم والنياشين، او بروح التآمر او بروح وحدوية صافية لم يكتب لها ان تعيش وسط التآمر.

فهل تصحح في عقباه معتقد؟!

هل صحح الاربعة ثورة ١٤ تموز ؟

اعتمدت الحكومات التي اعقبت حكومة عبد الكريم قاسم، وساهمت في اسقاطها، بشرعيتها على مبدأ تصحيح انحراف قاسم بثورة ١٤ تموز، وهو ما كان يردده الجميع بلا استثناء، وعلى كل المستويات الأعلامية والحزبية والفكرية والدبلوماسية. ومع أننا سنناقش هنا افتراضاً خاطئاً، فالثورة لا تصحح بالثورة عليها، لأن ذلك يعني واحدة من اثنتين، اما ان تكون الثورة التي وقع عليها التصحيح ليست ثورة، وهي واقع متخلف قائم على علاقات اجتماعية متخلفة فتنضج الظروف الموضوعية والذاتية، لقيام حركة ثورية وتغيير مجرى العلاقات السائدة، واقامة بديل ثوري متطور للواقع الفاسد. واما أن تكون الأوضاع السائدة قد حققت اشتراطاتها الثورية مما يساعد على تسميتها بالثورة. فيكون القضاء على الثورة عملاً مضاداً وحركة رجعية. ولم يحصل في تاريخ الفكر الثوري والثورات ان سميت الثورة، على ثورة تقدمية بانها ثورة. وتمشياً مع افتراض خاطىء نقول ان تصحيح الانحراف الثوري يتطلب في القائمين تحقق شروط معينة:

١ ـ ان يكونوا من ضلع الثورة لا من خارجها.

٢ ـ ان يكونوا من يسار الثورة لا من يمينها.

٣ ـ ان تكون تصوراتهم للحكم هي ذات تصورات الثورة القائمة. ولكن بتطويرها بابتكار وسائل وادوات ثورية، لم ينتبه اليها الحكم لأنجاز مراحل اجتماعية اكثر تقديمة.

٤ ـ ان يتوسع الثوريون الجدد، فيما ضاق به الثوريون السابقون، وان

يتحركوا من نقطة توقف النظام السابق، والاستمرار في حركة ثورية متصاعدة.

٥ ـ ومن الطبيعي ان تتحقق فيمن يتعهدوا بمثل هذه المهمة شروط واطارات اخلاقية وسلوكية وفكرية. كأن يكونون اكثر وعياً وصدقاً والتزاماً وحكمة وخبرة ودراية، ممن يراد تصحيح مسيرتهم.

٦ ـ ان ينتمي الثوريون الجدد الى طبقة ثورية مؤهلة للثورة على طبقة الحكام السابقين، كأن يثور البورجوازيون على ملوك وحكومات الأقطاع، وان تثور البروليتاريا على الحكومات البرجوازية.

ومثل هذا الشرط، كان يجب ان يكون اول الشروط لا آخرها، لكننا آثرنا تأخيره لكي نناقش مجاميع الأنقلاب على عبد الكريم قاسم بافكارهم. ولكي تترجم الأشتراطات النظرية الى واقع ملموس مشخص نقول.

ان يكون عبد السلام عارف واحمد حسن البكر وطاهر يحيى ورشيد مصلح، قد خرجوا من ضلع الثورة، وان يكونوا يسارها، وان تكون تصوراتهم هي تصورات ثورة تموز، ولكن بلا اخطاء، وان يبتكروا ادوات ثورية، لم يفطن اليها عبد الكريم قاسم، وان يتوسعوا في النقاط التي ضاق بها، فاذا كان عبد الكريم قاسم ونظام ثورة ١٤ تموز قد لجأ الى اعتقال المعارضين، وترك لهم حرية التحرك، واحتفاظهم بحقوقهم في العلاوة والترفيع والطعام الجيد، فان الحكم التالي لا يلجا الى الاعتقال أساساً، واذا شكلت ثورة تموز محكمة عسكرية علنية تبث على الهواء مباشرة فان الحكم التالي لا يؤمن بالمحاكم العسكرية او الاستثنائية، ويترك ذلك للقضاء العادي، واذا توقف عبد الكريم قاسم وحكومته، عند نقطة تحرير العراق من الاستعمار البريطاني، فان الحكم التالي، الذي ينهض بتصحيح انحراف قاسم، يزحف نحو الأجزاء العربية غير المحررة، ويطارد بريطانيا في كل مكان لتحرير بقية الأجزاء العربية.

واذا اخطا عبد الكريم قاسم حين اعترف بحزب شيوعي مزيف منشق، فان الحكم التالي يعترف بالحزب الشيوعي الصحيح، ويمنحه اجازة العمل. واذا اعتقل عبد الكريم قاسم الشيوعيين، وهم طرف في الحركة الوطنية (لنقص) في وطنيته فان الحكم التالي يطلق سراحهم.

واذا لم يمنح الأحزاب والحركات القومية اجازة عمل. فان حكومة معارضيه ستقر بحقوق الاحزاب والحركات القومية على افتتاح مقرات علنية لها!.

واذا ساءت علاقاته بزعيم قومي ووطني كبير كمحمد مهدي كُبة، اعاد الانقلابيون او الثوريون الجدد الاعتبار لهذا الزعيم واقروا بزعامته.

واذا ساءت علاقات قاسم بالزعيم الوطني كامل الجادرجي، عقد الثوار الجدد معه صلات كفاحية واطلقوا جريدة الأهالي من محتجزها.

واذا ابعد عبد الكريم قاسم رفاقه الضباط الأحرار، فان الحكم التالي سيعيد او أعاد الاعتبار الحقيقي لرائد فكرة الضباط الأحرار ورفاقه، ووضعهم في مكانهم، اعضاء في مجلس تشريعي يشرف على الحكومة!.

واذا توقف عبد الكريم وحكومته عن اصدار الدستور الدائم، وترك العراق عائماً في حالة من الاستثناء، فان الثائرين على حكمه قد صححوا الخطأ وانجزوا للعراق دستوراً دائماً وأجروا انتخابات نيابية لتحديد مستقبل شكل الحكومة!!

واذا استخدم عبد الكريم قاسم القوة المسلحة لمواجهة المطاليب القومية المشروعة للأكراد، فان المفروض فيمن يسعى لتصحيح مسار ثورته، انجاز مهمة قيام وحدة وطنية عن طريق اقرار الحقوق القومية للشعب الكردي وادارة شؤونه الذاتية ضمن الجمهورية العراقية.

واذا استعان اعلام عبد الكريم بالمغنيات على تمجيده الشخصي في الاذاعة والتلفزيون فان الحكومات التالية كما هو مطلوب منها قد أنفت عن ذلك!

واذا انجز عبد الكريم قاسم وحكومة الثورة مهمة تحرير الفلاحين العراقيين، والدخور بعلاقات انتاجية جديدة، دون ضوابط ادارية لزيادة الانتاج، فان منتقديه بعد ان استلموا السلطة قد انجزوا الجانب الاداري والفني لاحكام السيطرة وزيادة الانتاج، وجعل العراق من البلدان المعروفة بأمنها الغذائي وتصدير الفائض الى الدول العربية الجائعة او الغنية!

واذا انجز عبد الكريم قاسم خطة تنمية قومية عادلة، استهدفت توزيع المشاريع الكبرى على مناطق العراق كافة، ومات بعد أن افتتح قسماً منها، فالمفروض في معارضيه ان ينجزوا ما بقي من مشاريع لتحقيق نوع من الاكتفاء

الذاتي ولكي لا يكون العراق من اكبر مستوردي المنتوجات الصناعية والزراعية في العالم.

واذا انجز عبد الكريم قاسم مدناً اسكانية للضباط، فان الحكومات التالية قد انجزت مدناً للجنود!!

واذا شق الزعيم قناة الجيش، فعلى مصححي مسار الثورة ان يشقوا (قناة الشعب).

واذا أقام مائة قرية عصرية للفلاحين، فعليهم ان يقيموا ألف قرية.

واذا أقام مدينة للطب في بغداد، فعليهم ان يقيموا مدن الطب في بعقوبة والناصرية والرميثه.

واذا بنى الف دار في تل محمد للعمال وللفقراء، فعليهم ان يقيموا خمسة أضعافها في البياع.

واذا ازال القواعد البريطانية عن مسالحها في كافة انحاء العراق فقد طاردوا البريطانيين في عمان وساعدوا السلطان قابوس على تحرير عمان!

واذا لم تصل طائرة من طائرات قاسم الى تل ابيب فقد قصفوا من بعده المفاعل الاسرائيلي في ديمونة.

واذا انتهى من توزيع الارض على العمال والموظفين والمستخدمين الذين نهضوا ببناء مساكن حديثة لهم، فان الحكومات التالية بعد ان زادت واردات النفط، قد تبرعت بانجاز السكن لهؤلاء على نفقتها الخاصة اسوة بدول النفط.

فهل حدث شيء من ذلك؟ وهل كانت الشروط الشخصية في عبد السلام عارف، واحمد حسن البكر، ورشيد مصلح، اكثر تأهيلاً في المجالات السلوكية والفكرية وفي الحكمة والدراية ودرجة النقاء والأنسلاخ عن الآثار السلبية للبعد الطائفي والعشائري والعنصري، من عبد الكريم قاسم؟

وهل كانوا يمثلون مصالح البروليتاريا التي تؤهلهم شرعياً للثورة على حكم بورجوازي كحكم عبد الكريم قاسم؟ لكي تصح الثورة عليه وتصح ادانته بالتقصير، ويصح لمنتقديه ان يستمروا في انتقاده، حتى عام ١٩٨٣ في المنشورات السرية والاذاعات العلنية؟!

٩

ظهور الحق العرقي

كيف تصرف هؤلاء الاربعة مع حزب البعث بعد ان انتهوا من تصفية الحركة الوطنية؟ وكيف تصرف الواحد منهم مع الآخر؟ وماذا حل بالوحدة والوحدويين؟.

ان حديثاً مثل هذا، سيجر الكتاب الى خارج سنوات عبد الكريم قاسم، وهو انجرار لا يضيف الى المعروف في الساحة السياسية شيئاً، غير أن تجاوز التطورات الكبرى التي اعقبت انتهاء حكم ثورة ١٤ تموز، لا يخدم حركة التاريخ ولا منهج الكتابة فيه.

وباعتقادنا فان أخطر النتائج على الحركة الوطنية والقومية في العراق والتي ترتبت على سقوط حكومة ثورة ١٤ تموز، ظهور الانعطاف الحاد باتجاه تشكيل السلطة وفقاً للأعتبار الطائفي والعشائري والاقليمي. وظهور الحق العرقي للسلطة والسيادة الطائفية.

وكان عبد السلام عارف رائد الحق العرقي والعزل المذهبي في العمل السياسي، وفي التطبيقات اليومية على مستوى اجهزة الدولة. فلأول مرة في العراق يجري العمل بالهوية العرقية والطائفية علناً، واعتمادها اساساً في الترشيحات لقيادة المفاصل الرئيسية واشغال المراكز الأساسية. وفي عهده وهو اول رئيس جمهورية للعراق، جرى (تطهير) القصر الجمهوري ورئاسة الوزراء من العناصر التي تنتمي الى الاغلبية المطلقة، وان كانوا من الموالين للسطة، وممن ابلوا بلاء مشهوداً في مواجهة عبد الكريم قاسم وثورة ١٤ تموز.

وكان يعتقد بان على الأحزاب والحركات القومية، إذا ارادت ان تسمو بعملها الى مستوى يحظى باحترامه وتعاطفه، فعليها الأسراع لاجراء تغييرات في بنيتها القيادية والقاعدية، على ضوء الحق العرقي والعزل الطائفي شرطاً للزعامة السياسية. فجرت بعد ذلك انقسامات كبرى داخل تلك الأحزاب والحركات، وهي وان لبست ثياباً عقائدية، فانها لا تبتعد كثيراً عن نظرية عبد السلام عارف وكتلته الرباعية.

ومن يراجع تلك الفترة، يتلمس بوضوح اختفاء اسماء تاريخية، او ابتعادها عن احـزابهـا وحـركـاتهـا، لصـالـح اسماء ناشئة قادمة من مناطق الحق العرقي والعزل الأجتماعي.

ان الاسم المستحـدث اصطـلاحاً لوصف اصحاب الأغلبية المطلقة ، سواء من العاملين في الأحزاب الوطنية، أم في الحركات والأحزاب القومية، هو الشعوبية.

وقـد عمم استخـدام هذا الـوصف وبصورة استفزازية تكاد ان تعلن دون مجـاملة ونفـاق، عن مفهـوم جديـد للقـوميـة العربية وللأنتساب العربي.. ففي الـوقت الـذي كان المنظـرون القـوميـون، يؤكدون على اسقاط نظرية الرسوس، والتشهير بها على انها نظرية نازية، واعتماد تعريف للعربي يشترط فيه رغبته في الانتمـاء الى الأمـة الى جانب اللغـة العـربيـة. كانت عمليـات العـزل المـذهبي والعرقي، قائمة على مستوى اجرائي شامل، وهو يعاكس تماماً ما يقرأه الناس في الكتب.

لقـد ظهـر تصـور جديد في العمل القومي، وفقاً لنظرية الأربعة، وحكومات العشـرين سنـة، فقد جعلوا الانتساب الى الأمة العربية والنقاء القومي خاضعاً للنقـاء الطـائفي، وخـاصـاً بحملة العـر ق الحـاكم، فأختلطت النظرية القومية بالمـدرسـة التـركيـة. وحـدثت مصـاهرة جعلت اقرب الناس الى قومية الحاكمين اقـربهم الى هذه المـدرسـة. ممـا ترك آثـاراً سيئة على حركةالانتماءالقوميووحدة الشعور بالمواطنة التي تعرضت الى تصنيف سلّمي.

ان الحق العـرقي الطـائفي في السيـادة على السطـة، تحـول الى حق عرفي، وامتياز ثابت، وشرعية، لقيام حكومات العشرين سنة.

والمـلاحـظ ان عمليـات استبـدال المـواقع الأولى في هذه الحكومات، كانت تجـري داخـل هذا الحق. ويصـاحبهـا اجـراء ممـاثل في بعض هيئات ومنظمات المعـارضـة التي استنجـدت هي الأخـرى بحقهـا العـرقي والطـائفي للزعـامـة السياسية. وهي تعتقد ان ذلك ضروري لقبولها في الأحتياطي القادم باحتمالات التغير.

وكما اكمل الزحف العرقي الطائفي سيادته على المراكز الأساسية في السلطة وسفاراتها وترك لرفاقه من اصحاب الأغلبية فتات الموائد، حدث زحف مماثل على المراكز الأساسية في المعارضة، وبتوزيع دقيق على عدد من الأحزاب والحركات تاركين للمناضلين الاوائل ما تيسر تركه من الأدوار الهامشية.

وكما جرت تصفيات داخل السلطة ضد اصحاب الاغلبية المطلقة جرت امثالها في المعارضة. فأختفت اسماء كبيرة معروفة لصالح اسماء ناشئة من اصحاب الحق العرقي الطائفي.

ومن الطبيعي ان يتسبب هذا النشوز السياسي بظهور اشكالات واختلاطات في العمل الوطني والقومي، وتصارع عرقي مذهبي داخل الهيكل التنظيمي الواحد، والتيار الفكري الواحد الى جانب ظهور ملامح لتفاهم جديد بين رافضي الحق العرقي والطائفي، وان كانوا في تنظيمات مختلفة. فعناصر في المعارضة لا تعترض على التكوين الاجتماعي والعرقي للسلطة، بل قد تشعر نحو حكومات العشرين سنة بميل عاطفي واضح، فتصطدم برفض قاطع لهذا الحق من عناصر في الهيكل الواحد، وحيث لا يجد كل طرف هواه في مجموعته، يسعى للبحث عنه في المجاميع السياسية الأخرى، ويتجاوب تجاوباً صادقاً مع عناصرها، وان اختلفت المجموعتان تنظيماً وفكراً واتجاهاً.

لقد اعطى ظهور الحق العرقي الطائفي في السيادة على العراق واستخداماته في حكومات العشرين سنة، لعبد الكريم قاسم بعداً وطنياً اضافياً وملامح ديمقراطية، بل وتأهيلاً لزعامة لم يكن معروفاً عنه اثناء حكمه. وهي نتائج منطقية تولد بقانون التضاد والتجربة.

من هنا فان ثورة ١٤ تموز، التي كانت مركز خلاف ساهم في تشتيت القوى الوطنية والقومية في العراق، هي نفسها تصلح ان تكون مركز توحيد جديد لهذه القوى، لأنها أسست الشكل الديمقراطي الجيد لمسار الدولة. وان العودة الى الوطنية الاولى، التي تنقل الحركة الوطنية والقومية الى عام ١٩٥٧ حيث تشكلت جبهة الاتحاد الوطني، والى يوم ١٤ تموز ١٩٥٨ ، حيث تشكلت اول حكومة عراقية لجبهة الاتحاد الوطني قادرة على انهاء اصحاب الحق العرقي ووضعهم

خارج الساحة الوطنية.

ان الـذين لم يسـاهمـوا في مقـارعـة حلف بغـداد ، ولم يعـرفوا انتفاضات الـوطنيـين الاوائل ضد حكومة عبد الاله ونوري السعيد، والذين بنوا امجادهم على محاربة ثورة ١٤ تموز، وحقهم العرقي في السيادة، لا يستطيعون استقطاب المشاعر العامة للناس، ولا أن يقيموا وحدة وطنية، ويبنوا أساساً علمياً للصرح القومي، سواء كانوا في السلطة أم المعارضة.

ان بروز ظاهـرة العـودة الى الـوطنيـة الاولى رافقت وسترافق ظهور الحق العـرقي، وبـاعتقـادنا فان توزيعاً جديداً سيتجاذب الساحة العراقية في الداخل والخـارج، وسيحـدث انفصال كامل لا بين السلطة والمعارضة، وانما بين السلطة والسلطة وبين المعارضة والمعارضة، ثم بين السلطة والمعارضة كذلك.

وسـيركب النـاس تيارين ويصطفون فريقين، ان لم يكونوا قد اصطفوا منذ زمن، فريق الحق العـرقي الطـائفي حيث تجتمـع السلطـة والمعـارضـة. وفريق العـودة الى الـوطنية الأولى، حيث تصطف عناصر في السلطة مع المعارضة. ومن المعارضة الى المعارضة.

ان شيئاً واقع عملياً، لكنه يحتاج الى اعلان رسمي، يوفر للجميع بذل مزيد من الجهـد والـزيف والانتمـاء الكـاذب، في طرفـين متفقـين مختلفـين، وفي طرفين مختلفين متفقتين.

فلا بد للحق العـرقي من أن يثير في اصحابه النخوة فيربطاقدامه بذراعيه ولا بد له ان يثـير في الآخـرين روح الكبرياء والتمرد والثورة على الذات للخلاص من حالـة الأزدواج، اذ ذاك ينسحب المختلفـون الى المختلفـين والمتفقـون الى جانب المتفقـين، وقـد ينتهي ازدواج وصراع ظل طويـلاً، بين اصحـاب الحق العـرقي الطـائفي ودعـاة الـوحدة الى الوطنية الأولى، لا سيما ان ربع القرن الماضي أثبت فشل زعماء العزل العرقي سواء في الساحة المحلية أم في الساحة العربية. بسبب عدم قدرتهم على التـوفيق بين المسـؤوليـات القـوميـة والمسـؤوليـات الطـائفية الجسيمة التي يتحملونها بصبر وتضحية، سواء داخل الوطن أم في المنفى.

١٠

فـزعـة عـربيـة

كانت ايـام عبد الكريم قاسم عصراً ذهبياً لوحدة الصف العربي، وهو وأن لم ينجـز الـوحـدة فان الـوحدة العربية كانت قائمة على لسان الشعراء والمغنين والكتـاب العـرب، الذين ظهروا وكأنهم في فرقة الانشاد العربية التي لا تفتأ تردد قبـل ان يردد المـؤذن لصـلاة الفجـر.. بلاد العـرب اوطـاني من الشـام لبغدانِ. فيتوقف الجميع عند بغداد باكين، ويستنهض هممنا سليمان العيسى بما فيه من نقاء وأصالة.

بغداد قلعتنا وطيف موكب الهجناء عابر

الموعد الجبار وحدتنا وللمأساة آخر

فتجيبـه نازل المـلائكـة ببكـائيـة أخرى، وتنشر الآداب البيروتية باعداد خاصـة قصـائـد الوحدة الذبيح. ويضع خلدون الحصري كتابه عن حقيقة ١٤ تموز وانحراف قاسم، كما يضع الدكتور عبد العزيز الدوري مؤلفة في الشعوبية ليتطابق مع عبد الرزاق محي الدين وشاكر مصطفى سليم ومالك سيف في جريدة الحرية ببغداد، ويصير صالح جودت شاعر الوحدة في القاهرة، كما يصير فكري اباظة كاتب الوحدة. ولم يلتقيا في يوم على هذا المنهج قبل ظهور عبد الكريم قاسم.

وحـدة الصف العـربي متينـة كصخـرة الاهـرام، متمـاسكـة كطـابـوق الملوية،مضبوطة ضبط العقال.

لقـد استنهض المنحـرف الـوحـدوي نخوة الوحدة، فاشتعلت وحدة الدم بالملوك والشعـراء وبـالمحميـين والمحميـات. فقتـل الزعيم وهدأت العاصفة ولم يسأل بعـده أحـد عن المـوعـد الجبـار المسمّر القدمين على باب شرطي الكمارك في مدينـة الـرطبـة منذ عشرين عاماً، شاخصاً عينيه الى بغداد، وقد تهرأت ملابسه الصحـراوية فأرتدى الفرنسية واحتذى الايطالية واعتمر باليشماغ الأحمر دون ان يجـد من يشفـع له، وقـد مات صالح جودت واختفى عبد العزيز الدوري. اما

عبد الرزاق محي الدين فقد استوزر الوحدة، وتحقق المرام بعد كفاح الايام، وصارت الوحدة وزارة لها بوابون وملاحظون وكاتبات طابعة. ولم يلتقِ سليمان العيسى بموعده الجبار منذ عشرين عاماً تركه كما تركوه وحيداً بين شرطة الحدود.

فهل اعتقد شاعرنا ان آخر المأساة قد انتهى أم ان للمأساة آخر؟

يقول خلدون الحصري الذي يمثل نموذجاً من الكتابات العربية في تلك الفترة (ان مصير الفرد العربي بكل ما في كلمة مصير من معانٍ ومدلولات يتوقف على نتيجة هذه المعركة التي تخوضها القوى القومية في العراق. ان خسارة المعسكر القومي في العراق لهذه المعركة تعني اضاعة عربي المستقبل اينما كان يعيش لشخصيته وكيانه ووجوده. ولقد شاء التاريخ ان يمنح الحركة في العراق شرف الوقوف على خط النار الأول وشرف تقرير مصير الأجيال العربية القادمة ص ١٠٤ ثورة ١٤ تموز ط ٢).

انتهى عبد الكريم قاسم، وحكمت العراق حكومات وحدوية متعاقبة متواصلة فهل يشك السيد الحصري في عروبتها ووحدويتها ومضت عشرون سنة فكيف هو حال عربي المستقبل؟ وانتصرنا في المعركة المصيرية التي وضعنا التاريخ فيها فما هو مصير الأجيال العربية التي كانت (قادمة) وهي حالية بعد مرور هذه الفترة من الزمن؟

وما هو شكل المستقبل العربي الذي توقف عليه انتصارنا على عبد الكريم قاسم؟

من خلال صمت السيد الحصري والدكتور الدوري، يبدو ان المستقبل العربي قد عثر على شخصيته وكيانه ووجوده. فلم تعد ثمة حاجة لكتاب جديد او قصيدة جديدة!!

قامت دولتنا من المحيط الى الخليج بعد زوال الفترة المنحرفة في العراق، وعاد الفلسطيني المشرد الى عكا، وتدثر فقراء اليمن بعباءات أهل النفط، لتقيهم شر الجليد، وبفضل السادات تم القضاء على المنحرفين العرب من دعاة الصلح مع اسرائيل. ولهذا فلم يفكر لا خلدون الحصري ولا عبد العزيز الدوري ولا

امينة السعيد بوضع كتاب آخر عن منحرف آخر بعد زوال المنحرف الاوحد. وأصبح من حق احسان عبد القدوس وانيس منصور ويوسف السباعي ان يدبجوا المقالات في الثناء على بطل السلام وحامل راية الصلح. لكنهم والحق يقال ما زالوا متمسكين بخطهم الوحدوي فلم يتركوا مناسبة لذكرى ١٤ تموز في العراق دون ان يشبعوا اعمدتهم الصحفية بكميات كافية من (الحقد المشروع) على المنحرف عبد الكريم قاسم.

عربي المستقبل يواجه اليوم جنوداً اسرائيليين على باب بيته يحتسون اكواب البيرة امام دار النجادة التي تطوعت مرة للجهاد ضد عبد الكريم قاسم. والعلم الاسرائيلي يرفرف بنسيم هادىء مقابل المقاصد الاسلامية التي شمرت عن ساعدها في مواجهة عبد الكريم قاسم، وعربي المستقبل يمر في شارع من شوارع القاهرة العربية تحت العلم الاسرائيلي. وقد يكون المار بطلاً من ابطال الكفاح ضد قاسم. وعربي المستقبل عاش في جرش حين جزر ثلاثون الف فلسطيني وتصلبت عيناه على مشاهد صبرا وشاتيلا كما نقلتها الاقمار الصناعية.. ولم نقرأ قصيدة عربية لفزعة كتلك التي واجهت عبد الكريم قاسم.

وكأن ادب الوحدة مات بموته.. وأطبق الصمت المشبوه على الأفواه.. وكأن الوحدة صارت دستوراً وعلماً وجيشاً واحداً.. او كأنها لم تعد حاجة عربية وضرورة استراتيجية.

ان الدعوة لأدب وحدوي حار ملتهب كاسح هي الآن حاجة اخلاقية وسياسية في مواجهة السقوط الأخلاقي لمراكز الحكم العربي.

فهل يعود الوحدويون الاوائل الى الساحة سياسيين وشعراء مناضلين وكتاباً ليس لمواجهة حكم معادٍ للأستعمار والأحلاف العسكرية بل لمواجهة انظمة الموت ودعاة الاقليمية الجديدة التي خرجت الى الأمة العربية قومية على صفحات الجرائد فيما تمارس ابشع صور العنصرية والطائفية. لكي تكون الوحدة من جديد لقمة الجياع وشرف المهزوم وكبرياء المحتل.

الجمهورية العراقية

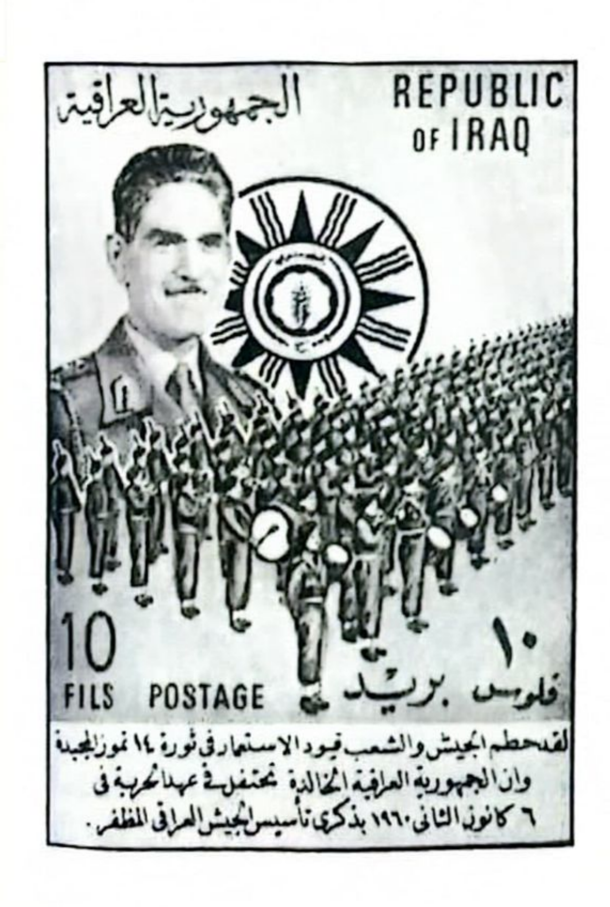


3rd ANNIVERSARY

POSTAGE 50 FILS

بريد ٥٠ فلساً

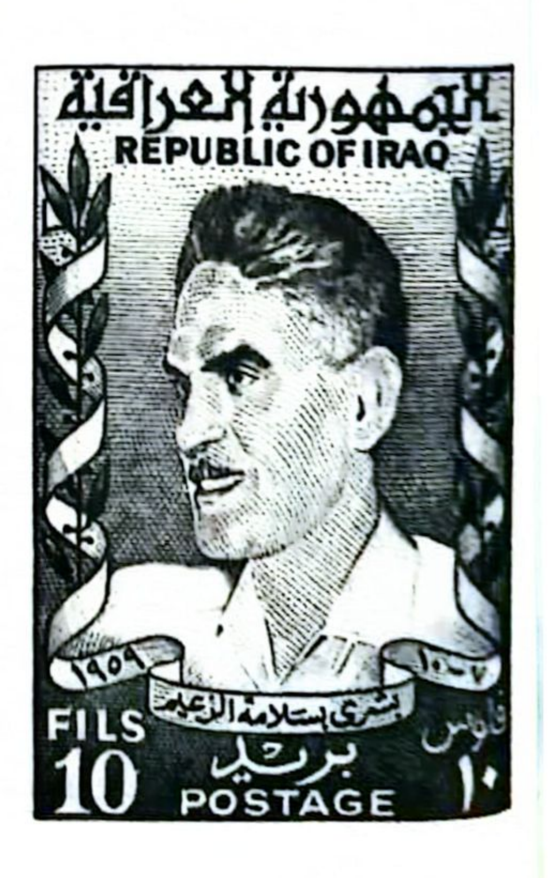

بريد
٦٠ فلسًا
REPUBLIC OF IRAQ
POSTAGE
60
FILS
الجمهورية العراقية
الزعيم الثائر عبد الكريم قاسم يوقد شعلة الخلود
للجندي المجهول يوم ١٤ تموز


REPUBLIC OF IRAQ
الجمهورية العراقية
10
FILS POSTAGE
١٠
فلوس بريد
لقد حطم الجيش والشعب قيود الاستعمار في ثورة ١٤ تموز المجيدة
وان الجمهورية العراقية الخالدة تحتفل في عهد الحرية في
٦ كانون الثاني ١٩٦٠ بذكرى تأسيس الجيش العراقي المظفر.


الجمهورية العراقية
لقد حطم الجيش والشعب قيود الاستعمار في ثورة ١٤
تموز الخالدة واحتفالاً في عهد الحرية بذكرى
تأسيس الجيش العراقي المظفر في ٦ كانون الثاني
١٩٦٠
30
FILS POSTAGE
٣٠
فلسًا بريد
REPUBLIC OF IRAQ


REPUBLIC OF IRAQ
الجمهورية العراقية
يوم الطفل العالمي
١ حزيران ١٩٦١
بريد
٣
فلوس
POSTAGE
3 FILS


الجمهورية العراقية
لقد حطم الجيش والشعب
قيود الاستعمار في ثورة ١٤ تموز
الخالدة
الحرية بذكرى تأسيس الجيش العراقي
المظفر في ٦ كانون الثاني ١٩٦١
POSTAGE
3
FILS
REPUBLIC OF IRAQ
بريد
٣
فلوس


الجمهورية العراقية
REPUBLIC OF IRAQ
١٩٥٩
١٠-٧
بشرى سلامة الزعيم
FILS
10
بريد
POSTAGE
فلوس
١٠

من موضوعات الكتاب

- عبد الكريم قاسم.. البيت.. والام.. والتاهيل الثوري.
- العائلة المالكة العراقية.. آخر ليلة ملكية.. هروب نوري السعيد.. ومفاجآت اليوم الاول
- مستجدات الشارع السياسي بعد ثورة ١٤ تموز.. محكمة الشعب.. وشمس الدين عبد الله.. وحامد قاسم.. وعبادة الشخصية.. والمؤامرة.. والاحزاب.. والقاسميون في الساعات الاخيرة.
- عبد الكريم قاسم والضباط الاحرار.. وجمال عبد الناصر.. واحمد حسن البكر.. وحكومات العشرين سنة.
- هل كان ارهابياً؟ شاهد عيان يروي مشاهد الحياة في المكتب.. والشارع.. والمعتقل.
- سقوط الملكية.. سقوط حلف بغداد.. سقوط الاقطاع.. تحرير الاقتصاد الوطني.. قانون رقم ٨٠.. ترحيل الانكليز من الشعيبة والحبانية.. علاقات صداقة وتعاون مع العالم الاشتراكي.. والتنمية.
- خلاف ام انحراف.. الصراع على الوحدة الفورية الى اين؟
- ظهور الحق العرقي والعزل المذهبي.. والعودة الى الوطنية الاولى.

السعر
٢٥٠ ل.ل
$ 5

ABDUL - KARIM KASIM
by
HASAN AL - ALAWI
1983